فنون الأدب العربي

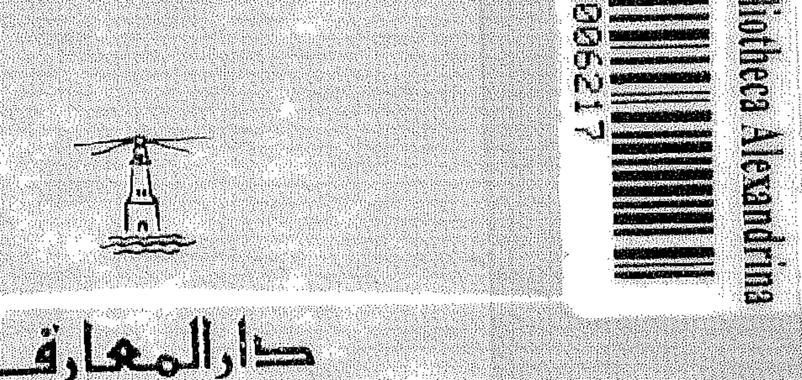
الفن الغنائي

٥

الفخر والحماسة

بقلم

حنّا الفاخوري



دار المعارف

الفخر والحماسة

فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٥

الفخر والحماسة

الطبعة الخامسة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

مقدمة

الفخر من أدل فنون الأدب على فطرة الإنسان ، فهو صدى تطلع النفس إلى ذاتها ، والتعبير عن الأثرة أشد النزعات فيها . والإنسان ، كما لا يخفى ، سجين ذاته منذ الولادة ، يديم النظر فى مرآتها ، مستجلياً محاسنها ، صابغاً قبائحها بما يجعلها فى ميزانه دون قبائح الناس أجمعين ، مقارناً فيما بينها وبين غيرها ، وهذا الإيثار للنفس ، إذا تجسم فى عبارات شعرية ، كان الفخر وكان الحماسة .

والفخر هو تعداد الصفات وتحسين السيئات ، وهو رفيق الآداب كلها منذ كان للشعوب آداب ، وهو عند العرب باب واسع من أبواب شعرهم ، يعبر عن ميلهم الطبيعى إلى الأنفة والعزة ، كما يعبر عن انتفاخة أعصابهم تحت تأثير العوامل الجوية والطبيعية ، وانطلاقها النباض وراء الآمال والذرى .

والذات فى الفخر ذات وتمددات للذات ، من خلال خَلقية وخُلقية ، ومن أصل ونسب ، وحزب ومذهب ، وأعمال وأقوال ، ومواقف كرامات وبطولات ، وما إلى ذلك مما لا نهاية له . والفخر من ثم أنواع : فخر ذاتى ، وفخر حزبى سياسى ، وفخر دينى ، وفخر حربى .

أما الفخر الذاتى فهو ما دار حول العقل والقلب واللسان والساعد ، وما دار

حول القبيلة والآباء والأجداد . وأما الفخر الحزبى فهو لسان الحزب ينطق بحقوقه وطموحه ، وينشر تعاليمه وآراءه ، ويهدف إلى الامتداد والاستيلاء ، وقد ازدهر منذ فجر الإسلام وعلا نجمه فى العهد الأموى ، وذلك لقيام الأحزاب المتناحرة من أمويين وعلويين وزبيريين وخوارج وغيرهم ممن سيأتى الكلام عنهم فى محله . وأما الفخر الدينى فقد ظهر خصوصاً مع الإسلام ورافقه فى فتوحه وانتشاره ؛ وأما الفخر الحزبى فهو شعر الحماسة ، والحماسة نشأت مع العربى منذ كان ، ومنذ ارتمى فى أحضان طبيعة قاسية جعلته غرضاً لأحداث الزمان ، ونكبات الحدثان ؛ وقد فطر العربى لذلك على الشجاعة والقتال ، وأصبح القتال جزءاً من حياته الطبيعية ، وطالما نشبت الحروب عند العرب ، وشبت الثورات الدامية ، فمن حرب الأوس والخزرج ، إلى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، إلى حرب البسوس بين بكر وتغلب ، إلى حروب اليمن وعدنان ، إلى حروب الفتوح التى امتدت ميادينها من حدود الصين إلى بحر الظلمات ، إلى قلب أوربة ، إلى الحروب المختلفة التى رافقت العرب فى ميادين عملهم ، والتى فجرت القرائح ، فتدفقت بسيل ملحمى مختلف زاخر بالبطولة والعزة .

ولما كان الفخر والحماسة من نتاج العاطفة الشديدة ، والانفعال العميق ، فقد حفلا بالمغالاة ، وانطلق فيهما الخيال مضخماً مهولاً ، وبرزت فيهما الحقائق التاريخية مجلببة بجلباب العاطفة والخيال ، واشتدت فيهما الأساليب الكلامية والألفاظ والحروف اشتداداً هداراً ، يرافق انفجارات النفوس واصطخابات القلوب ، كما يرافق فى مجالات القتال صهيل الخيول ، وقعقعات الأسلحة ، وجلبات المنون .

وإننا سنلزم فى دراستنا هذه جانب الإيجاز ، مقتصرين على الخطوط الكبرى ، مبينين المعالم والأطوار ، لا يهمنا من الأدباء إلا من مثل طوراً ، ومن الأحداث إلا ما كان عاملاً قوياً من عوامل التطور ، ومن الميزات الأدبية إلا ما كان بارزاً شديد البروز .

والله ولى التوفيق .

حنا الفاخورى

الفصل الأول

الفخر الذاتي

قلنا في مقدمتنا إن الفخر الذاتي هو ما دار حول الشاعر في نفسه وفي آبائه وأجداده . وهذا كثير في الأدب العربي لا يكاد يخلو منه ديوان ؛ وذلك أن العربي نزوع من فطرته إلى العلاء ، ميال إلى التعالي والمباهاة ؛ شديد الاندفاق بما في نفسه من نزعات ، والتغني بما فيها من حسنات ؛ شديد التطلع إلى ما مضى من الزمان وإلى مآثر الآباء والأجداد ؛ وهم في نظره هو عاملاً بأيديهم ، مفكراً بعقولهم ، باذلاً بأكفهم ، رافعاً مداميك المجد بأناملهم الزهراء ، قائلاً أروع القول بألسنتهم البليغة . وللصحراء المجدبة يد فعالة في تطلب ما لا يوجد ، وفي استثارة الهمة لنيل المثل العليا ؛ وللأخطار والضيقات يد فعالة في تنزي الطموح وتوثبه إلى الذرى ؛ ولمهاجمة العناصر وقوى العدو الغازي أو المستعمر يد فعالة في اهتزاز الأعصاب واستحثاث الغضبة الكبرى ، التي تنفجر مفاخر لا يحد من انطلاقها حد ، والتي تتسلح بأجنحة الخيال المضخم ، وتدوم في أجواء تناطح غوارب المستحيل .

والأخلاق والعادات تماشي ، عند كل أمة ، حاجاتها وصور معيشتها ، ومن ثم كانت الأخلاق والعادات التي فخر بها العرب ثمرة حاجاتهم وصور معيشتهم ، وقد فخروا بكرم العنصر ، وقوة العصبية ، ومنعة الجانب ، والشجاعة ، والكرم ، والإباء ، والوفاء ، والمروءة ، وما إلى ذلك مما كان شأنه عندهم عظيماً . ثم فخروا بالتعقل ، والفيض الشعري ، وحسن الصياغة ، والجمال الفني ، وما إلى ذلك مما سنأتي على ذكره فيما بعد .

عاش العرب ، أول ما عاشوا ، في بلاد تعددت صحاريها . وقل ماؤها ،

واتسعت أراضيها المجدبة ، وتسلط عليها الحر والسموم ، فكانوا فى أكثرهم بدواً يسكنون الخيام وينصرفون إلى رعى الإبل والشاء ، لا يقيهم غير سواعد قوية وقلب جرىء وتضامن قبلى ، ومن ثم كانت الشجاعة أغنية آمالهم ، وكانت القبيلة محط رحالهم يرتكز عليها نظامهم الاجتماعى ، ويتعصبون لها أشد التعصب .

ولما كانت الحياة فى البادية معرضة لقسوة السماء والأرض ، يلوح فيها شبح الفاقة كل حين ، عظم شأن الكرم عند العرب ، وهو سبيل العيش لفئة كبيرة من الناس ، وراح الشعراء يتغنون به ، ويفخرون بالبذل والعطاء ، ويفخرون أنهم يعطون على البديهة ، وأنهم يسرعون فى البذل وإن جهلوا السائل ، وأنهم يتهللون إذا جاء الطالب وأتاح فرصة للعطاء ، وأنهم يرحبون بالضيف ويقدمونه على الأهل والولد ، ويوقدون له نار القرى ليلاً على الجبال والربى ، ويعوّدون كلبهم أن ينبح للضيفان فيهتدوا بصوته ، إلى غير ذلك مما لا حصر له .

والحياة فى البادية حياة فطرة وصفاء طبيعة ، ومن ثم مال العرب إلى الحلم والإباء والشرف ، وراحوا يتغنون بكرم قلوبهم ، وترفعهم عن الفحشاء ، وتنكرهم للعار والصغار ، وتواضعهم وحيائهم ، وعفوهم عند المقدرة ، كما راحوا يتغنون بثورتهم فى وجه الإهانة ، وصلابتهم فى طلب الثأر .

والحياة فى البادية حياة ترحل وتنقل ، لا يقيدها قيد قانون ، ولا قوة منفذة . ولا محاكم ولا شرطة ، ولذلك كانت كلمة الشرف قانون الحياة ، وكان الوعد الصادق سنة المجتمع ، وكان الوفاء عند العرب من أقدس الأمور ، والغدر ونقض العهود من أحقرها وأبغضها إلى النفوس ، ولهذا تغنى الشعراء بالوفاء ، وأشادوا بذكر الأوفياء .

والحياة فى البادية حياة فروسية يعمل الأبطال فيها على حماية المستضعفين والبائسين ، ونجدة الملهوفين ، وإغاثة المحروبين ، وقد تغنى الشعراء من ثم بحفظ الجار وإعزاز جانبه ، وبتلبية دعوة المكروبين فى الحرب ، وبفك

العانى الذى أسر ، وبالدفاع عن المرأة ، وبكل ما هو من ميزات الفروسية الحق التى ترفع الإنسان إلى درجة عالية من السمو والكمال .

تلك كانت الحياة فى البادية ، وتلك كانت الخلال التى فخر بها الشعراء . ولما جاء الإسلام جمع كلمة العرب ونقل حياتهم من فردية قبلية إلى قومية عربية ، ونظم شؤونهم الاجتماعية ، وتناول أصولهم الأخلاقية وهذبها ونماها ووجهها فى طريق الاستقامة والفضيلة والخير ، ولبث الشعراء يفخرون بها مصطبغة بالصبغة الإسلامية ، ويزيدون ما توحى به البيئة الجديدة والدين الجديد . ولما كان العهد العباسى حيث نقلت ثقافة العالم القديم إلى العرب ، وانتشرت فى ديارهم الحركة العلمية ، وشاع فيهم التحصيل العلمى والسعى فى تركيز المعلومات ، وسن قوانين الكتابة والصناعة ، زاد الشعراء على مفاخرهم ما أوحت به البيئة الجديدة ، فراحوا يتغنون بالشاعرية والعقل واللباقة فى استنباط المعانى ، كما راحوا يتغنون بالذوق فى التنضيد والزخرفة وما إلى ذلك . ولبثت تلك الحركة الفخرية على حالها من ناحية الموضوعات والأساليب إلى منتصف عهد النهضة ، وقد تقلص ظلها شيئاً فشيئاً بازدياد الوعى وتطور الحضارة . وإليك نظرة تاريخية تحليلية فى أشهر شعر الفخر الذاتى على ممر العصور .

الفخر الذاتى فى الجاهلية

نبت الفخر فى الجاهلية نبتاً تلقائياً من نفوس تهوى العزة والمجد ، وقد ساعد عليه ما كان هنالك من أسواق تبسط أمام القبائل ميادين قول ومفاخرة ؛ ومن مواقف منافرة تقوم بأن يدافع شاعر محكم عن أحد سيدين متخالفين ، فينفره على خصمه ومنازعه ويفضله عليه مبيناً ما له من فضائل وحسنات ؛ ومن مجالس أدب كان العرب يجتمعون فيها لمناشدة الأشعار ومبادلة الأخبار ، وكانوا يسمونها أندية ، وكان لكل ناد فناء يزدحمون فيه للتناشد والتفاخر .

١ ــ فخر الصعاليك :

للصعاليك فى الأدب العربى فخر هو عصارة البادية وخلاصة النفس العربية الأصيلة . فتأبط شرًّا هو البادية فى بداءتها وقسوتها ، فى شظف عيشها وانطلاق حريتها ، فى هربها من النفس إلى النفس ، فى سذاجتها العذبة وفى ماديتها اللاحقة بالأرض . وهو رجل الانفرادية الذى لا يصحبه إلا « الىمانى الأفل » ، ورجل الحزم الذى يقرن الشجاعة إلى الفطنة ، والإقدام إلى الحكمة ، فيحتال على الأيام ويبعث النظر رائداً للعمل ، فهو « للقصد يبصر » وهو « إذا سد منه منخر جاش منخر » ، وهو « شرى » للعدو و « أرى » للصديق . والحرية الجاهلية من أقدس الأمور لديه فهو يؤثر الموت على ذل الأسر والقيد ، إلا أن الموت لا يناله بل « يبقى خزيان ينظار » فيتغلب على الموت بالحزم ، ويفلت من القيد بالحيلة . فهو أبداً يقظان يحسب لكل شىء حساباً ، وهو أبداً رجل الشخصية القوية والثقة بالنفس . وهو على فقره وتشرده كريم جواد يقرى الضيف صيف شتاء ، ويؤثر أضيافه على نفسه ، كما يدفع عن جاره ، ويأبى إلا أن يكون عزيز الجانب ، قرير العين . والثأر فى نظره واجب وهو حكم الحقيقة ولسان الحق :

إذا المَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وقَدْ جَدَّ جِدُّه ... أَضاعَ وقاسَى أَمْرَهُ وهوَ مُدْبِرُ

وَلكِنْ أَخَو الحَزْمِ الذى لَيْسَ نازِلا ... بِهِ الْخَطْبُ إلا وَهْوَ لِلقَصْدِ مُبْصِرُ

فذاكَ قَرِيعُ الدَّهْرِ ما عاشَ حُوَّل ... إذا سُدَّ منْهُ مَنْخِرٌ جاش منخرُ

أَقولُ للحْيانٍ وقد صفِرَت لهُمْ ... وِطابِى ويَوْمى ضَيِّقُ الْجُحْرِ مُعْوِرُ

هُما خُطتا إمّا إسارٌ ومِنَّـــةٌ ... وإمَّا دَمٌ والقَتْلُ بالْحُرِّ أَجْدَرُ

وأُخرَى أُصادِى النَّفْسَ عنها وإنَّها ... لَمَوْرِدُ حَزْمٍ إنْ فَعلْتُ ومَصْدَرُ
فَرَشْتُ لَها صَدْرِى فزَلَّ عنِ الصَّفا ... به جُؤْجُؤٌ عبْلٌ ومَتْنٌ مُخَصَّرُ
فخالَطَ سَهْلَ الأَرْض لم يَكْدَح الصَّفا ... بهِ كدْحَةً والموْتُ خزْيانُ يَنْظُرُ
فأُبْتُ إلى فَهْمٍ وما كِدْتُ آئباً ... وكَم مِثْلها فارَقْتُها وهْىَ تَصفِرُ

وذلك هو العربى الجاهلى ، وتلك هى النفس العربية الأصيلة التى ما تعلمت بعد أن تموه الحقيقة بالصنعة والكذب ، فالحياة عنده هزء بالحياة ، وتعلق بها ، هى كرامة تحفظ ، ومال يبذل ، وحرية تقدس ، ويد تمتد ، وانطلاق من غير انكفاء فى جو من الاطمئنان والحذر ، واللاوعى الحازم .

والشنفرى هو أيضاً ابن الصحراء وابن الطبيعة العربية الأصيلة ، وابن الفطرة الغنية بالاعتزاز والشرف والكرم وعلو النفس ، فجفاف الصحراء ، ومطاردة الشدائد كرًّا وفرًّا ، والتنكر للمذلة ، وإيثار الوحوش على الأهل لأنها أحفظ للسر وأحرص على الجار وإن جار ، والاكتفاء بالقليل مادة وسكناً . والصبر على الجوع ، وإيثار التراب على طعام المتفضلين ، ومجاراة الأيام ، والقبول بالفقر والغنى ، والارتياح إلى القوس ... هذا هو الشنفرى ، وهذا موضوع فخره ، وتلك طريقته الاعترافية الحافلة بالعذوبة . وها هو ذا ، وقد دخل الغيظ نفسه ، فغادر الأهل والأصحاب ، وراح يضرب فى الفيافى ولا أنيس له سوى السهام ووحوش الصحراء ، ثم نظم قصيدة كانت حكاية لحاله فى عزة نفسه وسخطها ووحشتها . نجتزئ منها بما يلى :

أَقيموا بنى أُمِّى صدورَ مَطيِّكُمْ ... فإنى إلى قومٍ سِواكم لأَمْيَلُ
فقد حُمَّتِ الحاجاتُ والليلُ مُقمِرٌ ... وشُدَّتْ لِطَيَّاتٍ مطايا وأَرحُلُ
وفى الأَرضِ مَنْأًى للكريم عن الأَذى ... وفيها ، لمن خاف القِلى ، مُتَعَزَّلُ

لعَمْرُكَ ما فى الأرضِ ضِيقٌ على امرئٍ سَرَى راغِباً أوراهباً وهْوَ يَعْقِلُ

وَلِى دونَكم أَهْلون سِيدٌ عَمَلَّسٌ وأَرْقَطُ زُهْلولٌ وعرْفاءُ جَيأَلُ

هُمُ الأَهْلُ لا مُسْتَوْدَعُ السرِّ ذائعٌ لديْهِم ، ولا الجانى بما جَرَّ يُخْذَلُ

وكلٌّ أبِىٌّ باسلٌ ، غَيرَ أننى ، إذا عُرِضَتْ أولى الطرائدِ أبْسَلُ

وإن مُدَّتْ الأيْدِى إلى الزّادِ لم أكُن بأعْجلِهِمْ ، إذ أجْشَعُ القومِ أعْجَلُ

وما ذاك إلا بَسْطَةٌ عن تَفَضُّلٍ عليهم وكان الأفضلُ المتفَضِّلُ

وإنى كفانى فَقْدُ مَنْ ليسَ جازِياً بحُسْنَى ولا فى قُرْبِه مُتعلَّلُ

ثلاثةُ أَصْحابٍ : فُؤادٌ مُشَيَّعٌ وأبيَضُ إصْليتٌ وصفراءُ عَيْطَلُ

هَتُوفٌ من المُلْسِ المُتُونِ يزينُها رصائعُ قد نيطَتْ إليها ومَحْمَلُ

إذا زَلَّ عنها السَّهمُ حَنَّتْ كأنّها مُرَزَّأَةٌ ثَكْلى تُرِنُّ وتُعْوِلُ

وعروة بن الورد هو رجل العطاء والجود يفخر بهما فى غير تبجح ، وهو رجل الاشتراكية الساذجة المرتكزة على محبة الغير والحدب على ذوى البؤس ، ومن أروع ما قال فى هذا الصدد :

دعِينى أُطوِّف فى البلادِ لعلّنى أُفيدُ غِنًى فيهِ لذِى الحقِّ مَحْمِلُ

أليس عظيماً أن تُلِمّ مُلِمَّةٌ وليس علينا فى الحقوقِ مُعَوَّلُ

فإن نحنُ لم نملِكْ دفاعاً بحادثٍ تُلِمُّ به الأيامُ فالموْتُ أجملُ

ومن ثم ترى أن هذا الصعلوك من أشرف الصعاليك ، فهو يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه ، ويبذل كل شيء فى سبيل الغير . وفخره إعتراف بما يعمل وبما يرى ، واندفاق طبيعى للنفس الجاهلية ، فى أقرب حالاتها إلى الفطرة .

ب ـ فخر الشعراء الفرسان :

وهنالك فئة أخرى من الشعراء هى فئة الشعراء الفرسان ، وأحسن شعرهم فى الحماسة والفخر ، وخير ممثلين لهم : حاتم طيئ وعنترة بن شداد .

أما حاتم الطائى فهو سيد من سادات قبيلته ، وهو مضرب المثل فى الجود وكرم الأخلاق والعاطفة الإنسانية التى تمتد إلى كل ضعيف وغريب ، ومعوز وأسير . قال ابن الأعرابى : « كان حاتم من شعراء العرب ، وكان جواداً يشبه شعره جوده ، ويصدق قوله فعله ، وكان حيثما نزل عرف منزله ، وكان مظفراً ، إذا قاتل غلب ، وإذا غنم أنهب ، وإذا سئل وهب ، وإذا ضرب بالقداح فاز ، وإذا سابق سبق ، وإذا أسر أطلق . وكان يقسم بالله ألا يقتل واحد أمه . وكان إذا أهل الشهر الأصم ، الذى كانت مضر تعظمه فى الجاهلية ، ينحر كل يوم عشرة من الإبل ، فأطعم الناس واجتمعوا عليه » .

وهكذا كان حاتم مترفعاً عن الدنايا ، وهو يقول :

كَرِيمٌ لا أَبِيتُ اللَّيلَ جَادٍ ... أُعَدِّدُ بالأَنامِلِ مَا رُزِيتُ[1]

إذا مَا بِتُّ أَشرَبُ فوقَ رِيٍّ ... لِسُكْرٍ فى الشرابِ ، فلا رَوِيتُ

إذا مَا بِتُّ أَخْتِلُ عِرْسَ جارِى ... لِيُخْفِيَنِى الظَّلامُ فَلا خَفِيتُ[2]

أَأَفْضَحُ جارَتِى وأَخونُ جارِى ؟ ... معاذَ اللهِ أَفعَلُ ما حَيِيتُ !

فهو عفيف وهو أبى النفس ، وهو لا يخون الجار مهما تقلبت الأحوال . وهو رائع فى فخره هذا ، مرتق إلى درجات عالية من سمو الأخلاق .

---

(١) الجادى : السائل . رزيت أى رزئت : أصبت به .

(٢) اختتل : أخادع . العرس : الزوجة .

وحاتم لا يعبد الدينار ، بل يرى أن الحياة بذل وسخاء ، وأن المال خلق للبذل فى سبيل الثناء والذكر الحميد . فعلى الإنسان ألا يكسبه بالغدر ، وعليه ألا يتمسك به تمسكاً شديداً ، وهو يقول :

إِذَا كانَ بعضُ المالِ ربًّا لأَهْلِهِ ... فإنِّى بحمد الله ، مَا لى مُعَبَّدُ
يُفَكُّ به العَانى ، ويُؤْكَلُ طيِّباً ... ويُعْطَى، إذا مَنَّ البَخِيلُ المطرَّد

وللمال فى مذهبه سبل ؛ وللبذل فى نظره مبرر ، فالعيش قصير ، والحياة فانية ، وخير ما يترك الإنسان على الأرض ذكر طيب ، وثناء يردده القاصى والدانى .

وحاتم يوقد النيران للضيفان ليلاً ، ويبذل فى سبيلهم كل نفيس . وكان إذا جنّ الليل يوعز إلى غلامه أن يوقد النار فى يفاع من الأرض لينظر إليها من أضله الطريق فيأوى إلى منزله ؛ وكانت كلابه لا تهر فى وجه ضيوفه :

وإنّا نُهينُ المالَ فى غيرِ ظِنَّةٍ ... وما يَشْتكينَا فى السِّنِينَ ضريرُها (١)
إذا ما بَخِيلُ النّاسِ هَرَّتْ كلابُهُ ... وشَقَّ على الضيْفِ الضَّعيفِ عَقُورُهَا (٢)
فإنِّى جَبَانُ الكلْب بَيْتِى مُوَطَّأٌ ... أَجودُ ، إذا ما النَّفْسُ شَحَّ ضَمِيرُها
وإنَّ كلابى قَدْ أُهِرَّتْ وعُوِّدَتْ ... قَلِيلٌ ، على مَنْ يَعْتَرِينى ، هَرِيرُهَا

وهكذا كان حاتم عبداً لضيفه ، وكان اشتراكى النزعة ، وهكذا كان فخره حكاية حال ، وتصويراً للحقيقة والآمال ، وهكذا كان رجلاً فوق الرجال ، وعلماً من أعلام المروءة العربية الأخاذة .

وأما عنترة بن شداد العبسى ففيه « معنى الرجولة العربية الكاملة ، فهو رقيق

---

(١) السنون : أى سنو القحط .

(٢) العقور : الذى يعقر .

دون أن تنتهى به الرقة إلى الضعف ، وهو شديد دون أن تنتهى به الشدة إلى العنف ، وهو صاحب شراب دون أن ينتهى به السكر إلى ما يفسد الخلق والمروءة ، وهو صاحب صحو دون أن ينتهى به الصحو إلى التقصير عما ينبغى للرجل الكريم من العطاء والندى ، وهو مقدام إذا كانت الحرب ، وهو عفيف إذا قسمت الغنائم وهو يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به العربى الكريم » فيقول :

أَثْنِى علىَّ بما عَلِمْتِ فإننِى ... سَهْلٌ مُخَالَقَتِى إذا لم أُظْلَمِ [1]

ولَقَدْ شرِبْتُ من المُدَامَةِ بَعْدَ ما ... رَكَدَ الهواجِرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ [2]

فإذا شَرِبْتُ فإنَّنِى مُسْتَهْلِكٌ ... مَالى ، وعِرضِى وافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ

وإذا صَحَوْتُ فَما أُقَصِّرُ عَنْ نَدًى ... وكَمَا عَلِمْتِ شَمائلِى وتكرمى

وعنترة يغشى الوغى ويعف عن المغنم ، وهو رجل حياء وتكرم وعفة ؛ وفخره صورة صادقة لنفسه الشريفة التى تأبى القيود ، وتسمو إلى العلاء ، ولا تقبل الذل والصغار ، والتى تؤثر الجوع على المأكل الخسيس ، ولا تخون الجار فى ماله أو فى عرضه .

حـ ـــ فخر الأمراء وشعراء البلاط :

وقد تعالت نغمة الفخر فى الجاهلية عند الأمراء أيضاً وشعراء البلاط ، إلا أن تلك النغمة لم تكن مجرد اعتراف وحكاية حال ، بل تضخمت أوتارها بعض التضخم ، فتضخمت من ثم المعانى والأخيلة ، ولكن من غير إحالة ولا غلو مكروه . ومن هذه الفئة السموءل وطرفة بن العبد .

---

(١) مخالقتى : معاشرتى .

(٢) المشوف : المجلو ، استعارها للدينار . المعلم : الذى يحمل كتابة .

أما السموءل فهو ابن غريض بن عادياء اليهودى صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتيماء ، وبه يضرب المثل فى الوفاء ، لأنه أسلم ابنه ولم يخن أمانته فى دروع أودعها عنده امرؤ القيس لما صار إلى القسطنطينية يطلب معونة القيصر . والسموءل عالى النفس عزيزها ، ينظر إلى كل شىء من علٍ ، لا عن كبرياء عمياء ، ولا عن غرور صبيانى ، بل عن أنفة مكونة من عرض مصون ، وكرم أصل ، وتسام فى صفوف شبان قومه وكهولتهم ، وعزة جار ، ومنعة وشجاعة ، وسخاء يد ، وتاريخ مجد لا يعدله مجد . وشعر السموءل صورة لتلك النفس الرفيعة بما فيه من متانة فى الأسلوب والتركيب ، وما فيه من رصانة وجلال . قال مفتخراً:

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللؤْمِ عِرْضُهُ ... فكلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَحْمِلْ عَلَى النَّفْسِ ضَيْمَهَا ... فَلَيسَ إلى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلُ
تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا ... فَقُلْتُ لها إِنَّ الكِرَامَ قَلِيلُ
وما قَلَّ مَنْ كَانَتْ بَقَايَاهُ مِثْلَنَا ... شَبابٌ تَسامى لِلمعلَا وَكهولُ
ومَا ضَرَّنَا أَنَّا قَلِيلٌ وجَارُنا ... عَزِيزٌ وجارُ الأَكْثَرِينَ ذليل
لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجِيرُهُ ... مَنِيعٌ يَرُدُّ الطرْفَ وَهْوَ كَلِيلُ
رَسَا أَصْلُهُ تَحتَ الثَّرَى وَسَما بِهِ ... إلى النَّجمِ فَرْعٌ لاَ يُنالُ طَوِيلُ
وَإِنا لقَوْمٌ مَا نَرى القَتْلَ سُبّةً ... إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ
يقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجالَنا لَنا ... وَتكْرَهُهُ آجالُهُمْ فَتطُولُ
وَما ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلا طُلَّ مِنَّا حَيثُ كانَ قَتيلُ
تَسيلُ على حَدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنا ... وَلَيست على غَيْرِ الظُّباتِ تَسيلُ
صَفَوْنا فَلَمْ نَكْدَرْ وَأَخْلَصَ سِرَّنا ... إِناثٌ أَطابَتْ حَمْلَنَا وفُحُولُ

عَلَونا إلى خَيْرِ الظُّهُورِ وحَطَّنا ... لِوقتٍ إلى خَيْرِ البُطُونِ نُزُولُ
فَنحْنُ كَماءِ الْمُزْنِ مَا فى نِصابِنا ... كَهامٌ وَلا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ
ونُنكِرُ إنْ شِئنَا عَلى النَّاسِ قَولَهمْ ... ولاَ يُنكِرُون الْقَوْلَ حينَ نقول
إذا سَيِّد مِنَّا خَلاَ قامَ سَيِّدٌ ... قَؤُولٌ لِما قالَ الكِرامُ فَعُولُ
وَما أُخمِدَتْ نَارٌ لَنا دُونَ طَارِقٍ ... ولا ذَمَّنا فى النَّازِلينَ نَزِيلُ
وأَيَّامُنا مَشهُورةٌ فى عَدُوِّنا ... لَها غُرَرٌ مَعْلُومَةٌ وحُجُولُ
وأَسيَافُنا فى كلِّ غَرْبٍ ومَشْرِقٍ ... بها مِنْ قِراعِ الدَّارِعينَ فُلولُ
مُعوَّدَةٌ أَلا تُسَلَّ نِصالُها ... فتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ
سَلِى إنْ جَهلْتِ الناسَ عنَّا وعَنْهُمُ ... فَلَيس سَواءٌ عَالِمٌ وَجَهُولُ
فإنَّ بَنِى الدَّيَّانِ قُطبٌ لِقَومِهمْ ... تَدُورُ رَحاهُمْ حَوْلهمْ وتَجُولُ

هذه القصيدة خلاصة الخلق العربى النبيل ، وخلاصة المروءة وعزة النفس، وهى تنقل القارئ إلى جو واسع من الرفعة ؛ وهى تنبض بالحياة وتمثل روح صاحبها أقوى تمثيل ، وكأنى به شاخصاً فى كل لفظة وكل نبرة وكل بيت ، وكأنى به فى ذروة المجد العربى يردد القول :

تُعيِّرُنا أنَّا قليلٌ عديدنا ... فقُلْت لها إنَّ الكرامَ قليلُ

وأما طرفة بن العبد فليس من شعراء الفخر الذين أكثروا من القول فيه ، ولكنه شاعر عاش فى جو من التحرر الفكرى والأخلاقى ، فاصطدم بالواقع الأليم ، وطرد من حيه فراح يضرب فى البلاد إلى أن اتصل ببلاط الحيرة، واصطدم هنالك أيضاً بضعة الناس ولم يحسن المراوغة ، وقد كان للاصطدام فى نفسه انفعالات

شديدة ، وهو الشديد الشعور ، والكثير الانكفاء على الذات وعلى أحداث الحياة يحللها ويحاول تفهم مصايرها ومصادرها . وقد كان لنفسه غضبات وانتفاضات ضمنها من أقوال الفخر ما يبدي لحالاته النفسية أصدق إصداء. وهو فى فخره رجل عنفوان يقعد على الواقع انطلاقات خياله ، وهو رجل صراحة وجرأة ، يصف لنا حاله فى غير التواء ، وإذا هو قوى على حوادث الدهر ، صبور فى الملمات ، وإذا هو من قوم مجدهم فى اتزانهم ، ورفعتهم فى اتضاعهم وبسطة أكفهم ، لا تبدلهم الأحداث ، ولا تغيرهم الأحزان والمسرات ، يعطون فى غير حساب ، ويقرون الضيفان فى غير اقتصاد ، لهم فى نحور الأشرار طعنات وطعنات ، ولهم فى نحور الأخيار قلائد وقلائد ، لا تعز الحمرة فى جنباتهم ، ولكن لهم مع الحمرة عقولاً راجحة ، وفضائل غراء :

وتَشَكَّى النفسُ ما صابَ بِها ... فَاصْبِرِى إنَّكِ مِنْ قَوْمٍ صُبُرْ[(١)]

إنْ نُصَادِفْ مُنْفِساً لاَ تُلْفِنا ... فُرُحَ الخَيْرِ، وَلا نَكْبُو لِضُرْ[(٢)]

أُسُدُ غابٍ ، فإذا مَا فَزِعُوا ... غَيْرُ أنْكاسٍ ولا هُوجٍ ، هُذُرْ[(٣)]

وَلِىَ الأَصْلُ الذى فى مِثْلِه ... يُصْلِحُ الآبِرُ زَرْعَ المُؤْتَبِرْ[(٤)]

طيِّبو الباءَةِ ، سهْلٌ ، ولَهُمْ ... سُبُلٌ إنْ شِئْتَ فى وحْشٍ وعِرْ[(٥)]

وهُمُ ، ما هُمْ ، إذَا ما لبِسُوا ... نَسْجَ داوُدَ لِبَأْسٍ مُحْتَضِرْ[(٦)]

---

(١) صاب بها : الباء زائدة ، أى أصابها .

(٢) المنفس : النفيس . نكبو : نحزن .

(٣) الأنكاس : الجبناء .

(٤) الآبر : المصلح . المؤتبر : طالب الإصلاح .

(٥) الباءة : المساحة . يقول : إن ساحاتهم سهلة لطالبى معروفهم ، وهى وعرة لطالبى ضرهم .

(٦) نسج داود : أى الدروع . المحتضر : الحاضر .

وتَسَاقَى القَــومُ كأساً مُرَّةً ‏ وعَلا الخَيْلَ دماءٌ كالشَّقِرْ (١)

ثُمَّ زادوا أنهم فى قومهمْ ‏ غُفُرٌ ذنْبَهُمُ ، غيْرُ فُخُرْ

لا تَعِزُّ الخمرُ ، إن طافوا بها ‏ بسِباءِ الشَّوْلِ ، والكُومِ البُكُرْ (٢)

ورثُوا السُّؤْدُد عن آبائهم ‏ ثم سادوا سؤدداً غيرَ زَمِرْ (٣)

نَحْنُ فى المَشْتَاةِ نَدْعُو الجَفَلى ‏ لا تَرَى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ (٤)

حين قال الناسُ فى مجلسهم ‏ أقُتَارٌ ذاكَ أم ريحُ قُطُرْ ؟ (٥)

ولقد تَعْلَمُ بَكْرٌ أنَّنَا ‏ آفَةُ الجُزْرِ مساميحٌ يُسُرْ

ولقَدْ تَعْلَمُ بَكْرٌ أنَّنا ‏ واضحو الأوجُه ، فى الأَزْمةِ ، غُرْ

ولقد تَعْـلَمُ بَكْرٌ أنَّنا ‏ فاضلو الرأى وفى الرَّوْع وقُرْ

ولقد تعْلَمُ بكرٌ أنَّنـا ‏ صادقو البأْسِ ، وفى المحفلِ غُرْ

ويمضى الشاعر الشاب فى تعداد المفاخر متئداً ، هادئَ السرب ، واثقاً أن ما يقوله هوالحق ؛ لا يبغى التهويل ولا يتطلب التمويه ؛ هو رجل عقيدة خاصة ، وهو رجل مروءة ، وهو رجل حزم وصرامة ؛ وهو فى كلامه الصارم يصوغ المعانى فى قالب من البداوة الأصيلة ، تلك البداوة الواعية التى ترى وتدرك وتقيس كل شىء بمقياس الأخلاق البدوية الرفيعة ، من غير ما إغراق فى الغلو المبتذل .

* * *

---

(١) الكأس المرة : الحديث فى الحروب . الشقر : شقائق النعمان .

(٢) طافوا بها : ساروا بها . سباء : شواء . الشول : النوق التى مر عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر . الكوم : النوق العظيمة السنام . البكر : الحديثات السن .

(٣) الزمر : القليل .

(٤) المشتاة : الشتاء . ندعو الجفلى : أى نعم بدعوتنا إلى الطعام ولا نخص أحداً .

(٥) القتار : رائحة اللحم المشوى . القطر : العود الذى يتبخر به .

تلك نماذج من الفخر الذاتى فى الجاهلية ، يتضح لنا من خلالها أن موضوعها الأخلاق العربية التى كان العربى يعتز بها ، وهى مستوحاة من حياة الفطرة وحياة البادية . ويتضح لنا أنها تنبت على لسان الشاعر الجاهلى نبتاً تلقائياً فى سذاجة عذبة ، وفى إيمان ثابت بالكرامة العربية ، والعزة البدوية .

الفخر الذاتى فى العهد العباسى

لم يقتصر الفخر الذاتى على الجاهلية وإنما تعداها إلى سائر عصور الأدب ، ورافق الشعر فى جميع تطوراته ، وقد انتشر فى العهد الإسلامى والأموى ولكنه امتزج بفكرة الفتوح ، وبالحماسة الهجائية والحربية ؛ ولهذا آثرنا أن نجعله فى باب خاص ؛ ثم كان العهد العباسى ، وكان الانقلاب العظيم فى السياسة والاجتماع والثقافة ، وجرى التمازج الضخم بين العرب والشعوب الأعجمية . وبين العقل العربى والعقل اليونانى والفارسى والهندى ، وبين الحضارة العربية وحضارة الشرق القديم ؛ ونشأت النزعة العنصرية فى صفوف الشعوبية ، وكان للفخر على كل حال أبواب وأبواب . أما موضوعات الفخر الذاتى فى العهد العباسى فهى مما يماشى حاجات أبناء ذلك العهد وصور معيشتهم . وقد كانوا فى بدء الأمر فى طور انتقال من حال إلى حال ، من عروبة أصيلة إلى عروبة ممتزجة ، من تشديد إلى تحرر ، من ثقافة وحضارة عربيتين إلى ثقافة وحضارة هما مجموعة ثقافات وحضارات . من عادات وتقاليد عربية فى الأخلاق والدين والأدب ، إلى عادات وتقاليد هى عصارة عادات وتقاليد ومجموعة نزعات تصطبغ كلها بصبغة الانفلات من القيود ، والتفلسف والجدل ، والاعتماد على العقل الذى فاجأته الفلسفات فحار بينها وحاول أن يهدم ويبنى فى غير تثبت عميق أحياناً كثيرة . ثم راح أبناء ذلك العهد يهضمون الفلسفة والعلوم ، وراحوا يبحثون ويناظرون ، وراحوا يكتبون فى ما يبحثون ، وإذا الجو جو علمى ثقافى تجديدى ، وإذا هنالك صراع بين القديم والجديد ، وبين التقاليد والتقاليد ، وإذا هنالك تفاخر على غير خطة الجاهلية والعهد الأموى ، وإذا الفخر يدور حول العقل والرأى والحكمة ، وحول الانفلات والتحرر ، والشجاعة الحكيمة ، والحزم فى

الأمور ، والأصل العريق فى الحضارة والرقى . والشاعرية الخلاقة والزخرفة الحافلة بالفن ، والأصباغ المتماوجة فى أجواء الجمال ، وحول الوقار والتعالى فى سلم المجد المعنوى ؛ وما إلى ذلك مما نلمسه بقوة فى الأدب العباسى . ولئن عثرنا بعض الأحيان على فخر بدوى يشبه الفخر القديم : فما ذلك إلا نفحات صحراوية فى بلاد اليمن والرخاء . وما ذلك إلا أصوات ناشزة فى عالم من الأنغام المتناسقة .

وإننا سنعرض لبعض شعراء الفخر فى هذا العهد مبينين ما لهم من صفات وميزات ؛ موضحين آراءهم وأساليبهم ؛ وإن فى شعرهم الدلالة الثابتة على ما فى شعر غيرهم من ميزات وآراء وأساليب .

ا ــ فخر المجددين :

حياة جديدة واسعة الآفاق ، وعناصر أجنبية تضمر للعرب شرًّا ، وشعوبية غاضبة على السلطان القائم ، وتدخل الفرس فى صلب الدولة ، كل ذلك دعا إلى التجديد فى مطلع العهد العباسى . بل دعا إلى صراع بين أرباب القديم وأرباب الجديد . وخير ممثل لهذه النزعة التجديدية فى الفخر بشار بن برد .

كان بشار من أصل غير عربى ، وكان فياض القريحة الشعرية ، ففخر على عادة الشعراء ، وكان الميدان أمامه واسعاً ، وإذا به يصف نفسه بكل الصفات المحببة إلى ابن العهد العباسى ، فى كلام متين ، وتدفق عجيب ، وسلاسة ما بعدها سلاسة ، وموسيقى شعرية أخاذة ؛ وإذا به رجل الشهرة الواسعة التى لا تضاهيها شهرة :

أَنَا المرَعَّثُ لا أُخْفَى على أَحدٍ ذَرَّتْ بِىَ الشمسُ للدَّانى وللنَّائِى

وإذا به نموذج ومثال أعلى يشبه به الخليفة نفسه :

يغدو الخليفَةُ مِثْلِي فى محاسنهِ ولسْتَ مِثْلِي فَنَمْ ياماضِغ الْماءِ[1]

فهو أخو المحاسن ، وهو الرجل العالى فى مراتب الاجتماع ، وهو رجل الخطة العظيمة ، الذى ينهض بكل أمر ذى شأن .

وهو رجل المضاء والبيان :

قَطَعْتُ مِرَاءَ القوم يَوْمَ مَهَايِلٍ بقَوْلى وما بَعْدَ البَيَـانِ مِرَاءُ
وقد علمتْ عليـا ربيعةَ أنَّنى إذا السَّيْفُ أَكْدَى كان فِىَّ مَضَاءُ

وهو القلب النير والمقول الذرب :

قَدْ أَذْعَرُ الجِنَّ فى مَسَارِحِها قَلْبِى مُضِىءٌ ومِقْوَلى ذَرِبُ

هو رجل العقل والحصافة ، هو رجل الثقافة الواسعة فى عالم الثقافة والعلم ، وهو رجل القريحة الفياضة فى عصر الإنتاج والنقل والترجمة ، وهو إلى ذلك رجل الوقار القائم على العقل المفكر :

يا سَلْمَ إنِّى امرؤٌ يوقِّرنى حِلْمِى إذا القَوْمُ فى الخنا وَثَبُوا

أما قومه فخير القوم ، فى شجاعتهم ، وعزّهم وشرفهم ، ورجاحة عقلهم :

أَصُونُ عن اللِّئام لُبابَ وِدِّى وأَختصُّ الأَكارِمَ باللبابِ
وأَىُّ فتًى من البَوْغاءِ يُغْنِى مُقَامِى فى المخاطِبِ والخِطَابِ[2]

(١) يخاطب يحيى بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس ويهجوه وينعته بالحمق وسوء وضع الأشياء موضعها .

(٢) البوغاء : الحمق .

وتَجْمَعُ دَعْوَتِى آثار قَوْمى   همُ الأُسدُ الخوادِرُ تَحْتَ غابِ
وُلاةُ العِزِّ والشَّرَفِ المعَلَّى   يردُّونَ الفُضولَ على المُصَابِ

هؤلاء هم قومه ، وهذا هو فى قومه . وهذا هو العقل عنده وعند قومه ، وهذه هى النزعة الإنسانية التى تحنو على الوجود ، وتقابل النكران بالجود ، وتنبت من الشر خيراً ، ومن الغضب براً ، وتسرع إلى الرحمة من غير ما سرعة إلى العتاب والعقاب ، وترد الضال عن غيه ، وتلم الشعث ، ولا تطلب من عمل خير تعمله إلا أن ينتفع الناس ويعرفوا الجميل ؛ وإذا دعت الحال إلى الحرب ، كانت تلك النزعة صدوراً متأهبة للقتال فى بأس شديد، وسخاء فى التفانى عجيب.

مشهد جديد من مشاهد الفخر دعت إليه الحضارة الجديدة والمجتمع الجديد ، وكم فى هذا الفخر من تعقل ورصانة وجودة تفكير !

وأما أصل بشار فهو بعيد عن كل أصل عربى ، وهو بعيد عن عادات العرب . وهنا تظهر النزعة الشعوبية عند بشار بأجلى مظاهرها . فاسمعه يقول .

هَلْ مِنْ رسُولٍ مُخْبِرٍ   عنِّى جميعَ العربِ
بأننى ذو حَسَب   عالٍ على ذى الحسب
جَدِّى الذى أَسْمو به   كسرى وساسان أَبى

.

إن فى هذه القصيدة استعلاء شديداً على العرب ومفاخرة بالفرس والروم . وهذا شىء جديد فى تاريخ الفخر العربى . وإننا إذا أنعمنا النظر فى القصيدة تجلت لنا الحضارة الفارسية فى أبهتها ورونقها ، وذكرنا الحروب الفارسية وانتصارات الأكاسرة ، ووقفنا أمام الشاعر متتبعين لأحداث التاريخ ، ذاكرين أثر الفرس فى الانقلاب العباسى ، وكيف كان ذلك شرارة ألهبت النار الشعوبية

فى طول البلاد وعرضها ، مما شجع الألسنة على تنقص العرب والحط من شأنهم والتطاول على كرامتهم .

وبشار رجل طوّحت به الأقدار وزجته فى ظلمة كالحة ، لا يجد معها سلاحاً يقاوم به الحدثان إلا لساناً محدداً ، وشاعرية فياضة تلبى حين الطلب . وهو رجل عنفوان وطموح ، تحمله طبيعته على التسامى وعلى سد نقص الطبيعة بذلك التسامى نفسه ، وهو من ثم ميال إلى المفاخرة ، حاقد على الحظ ، كاره للناس ولا سيما العرب منهم ، الذين يجد من بعضهم استصغاراً لشأنه . وهذا الشعور بالنقص عند بشار ، وهذا الحقد ، وهذا التسامى ، كل ذلك يدفعه إلى السخرية الصفراء ، إلى الاستهزاء الناقم . ولهذا حفل فخره بالاستهزاء اللاذع والسخرية القتالة .

وبشار إلى ذلك رجل حماسة فياضة ، ينتفض شعره بعاطفته انتفاضاً ، وتحمل ألفاظه أصداء عميقة لتلك العاطفة المنتفضة ، وهو القائل :

إِذَا الملكُ الجبّارُ صعَّرَ خَدَّهُ مشينَا إِليهِ بالسيوفِ نُعاتِبُهْ

وهكذا كان بشار نفير العهد الجديد ، وهكذا كان فخره جديداً بمعناه وأسلوبه وشعوبيته ، وإن لم يخل من بعض النفحات القديمة التى انتقلت إليه عن طريق التقليد .

ب ــ فخر العودة إلى القديم :

بعد هذه الثورة التجديدية التى حاول أن يبعثها المجددون ، نشأ تيار معاكس يعمل على العودة إلى القديم وتقليد الأقدمين ، ويرد الشعر إلى أبواب البلاطات ، وإلى أرستقراطية القديم وصلابته ، من غير ما تغاض عن حضارة العصر الجديد ، ومن غير إهمال لما تقدمه الثقافة الجديدة من عمق تفكير ، وتنميق وتحبير ، ومن تفخيم وتطلب للصنعة البديعية . وقد اشتهر فى هذه المرحلة أبو تمام والبحترى وابن الرومى .

أما أبو تمام فهو صاحب قصائد قليله فى الفخر ، يبدى فيها إعجابه بعقله الباكر الفذ ، وعبقريته الشعرية ، وبصبره ومضائه فى اقتحام الصعاب ، وسعيه وأسفاره ، كما يعرب فيها عن إعجابه بقبيلته طيئ ، وما تمتاز به دون سواها من حجى وحلم وشجاعة ، ومن مجد أثيل ، وندى فياض .

وأما البحترى فقد أودع فخره إعجابه بقومه ، مباهياً بمكارمهم ، معدداً مناقبهم ، مقابلاً شرف اليمن وعزّها بخشونة عرب الشمال وسوء حالهم ؛ كما أودعه إعجابه بنفسه ، وكبره المفرط ، ذلك الكبر الذى طالما حال التكسب دونه فى حياة الشاعر ، فاضطره إلى كسر عنفوانه وعناده ، وهضم الإهانة فى حذر ، خشية صد العطاء .

وأما ابن الرومى فكان الفخر عنده وسيلة يحارب بها سوء نظر الناس إليه ، وكان انتفاضة عصبية فى وجه الظلم ولؤم الناس . فهو يقرع الممدوحين على الالتفات إلى سائر الشعراء دونه ، وهو وحده فى نظره الجدير بالالتفات ، ويفخر وفخره أحياناً كثيرة بشعره وبلاغته . ومن قوله :

شِعْرِىَ شِعْرٌ إذا تأَمَّلَهُ الإنسـ ... انُ ذو العقلِ والحجى عَبَدَهْ

ومن قوله أيضاً مخاطباً القاسم بن عبيد الله :

إنْ أَكُنْ غيرَ مُحْسنٍ كلَّ ما تَطْـ ... لبُ إنّى لَمُحْسنٌ أجزاءَ
فمَتَى ما أَرَدْتَ طالِبَ فَحْصٍ ... كُنْتُ مِمَّنْ يشارِكُ الحكماءَ
ومتى ما أَرَدْتَ قارِضَ شِعْرٍ ... كُنْتُ مِمَّنْ يُسَاجِلُ الشعراءَ
ومتى ما خطَبْتَ منّى خطيباً ... جَلَّ خَطْبِى ففاقَ بِى الخُطَباءَ
ومتى حاوَلَ الرسائِلَ رَسْلِى ... بَلَّغَتْنى بلاغَتى البُلَغاءَ

ﺣ ـ فخر شعراء الإمارات :

ازدهرت الإمبراطورية العباسية ازدهاراً شديداً فى امتداد أطرافها وسعة رقعتها وخصب أرضها وسمائها وعظمة سلطانها ، وقد بلغت أوجها فى عهد المأمون . وما إن دارت الأيام دورتها حتى تمزق هيكل تلك الإمبراطورية الضخمة لأسباب اجتماعية وسياسية ، وحتى أصبحت نهباً لكل ذى طموح وطمع ، وإذا الدولة تصبح دويلات ، أشهرها دولة بنى العباس فى بغداد ، ودولة البويهيين فى فارس ، ودولة الحمدانيين فى الشام ، ودولة الفاطميين فى مصر والمغرب . وقد تنافست تلك الدويلات فى تشجيع العلم والأدب ، وأصبحت البلاطات المختلفة مباءة الشعراء والكتاب . وقد اشتهر من الشعراء فى هذه الحقبة أبو الطيب المتنبى ، وأبو فراس الحمدانى ، والشريف الرضى ، وأبو العلاء المعرى ، والطغرائى .

أبو الطيب المتنبى :

ولد بالكوفة وفخره كثير فى ديوانه . وهو مبثوث فى جميع قصائده تقريباً ، وإن لم يستقل بواحدة منها . فأبو الطيب يفخر فى جميع أحواله ، سواء رثى أم مدح أم هجا أم تغزّل أم شكا . ولا عجب ، فهولا يرى له مثيلاً فى الوجود ، يعبد نفسه ويكاد لا يعرف فى الأرض سواها . أحس بعظمة شخصيته، وقدر صفاته ، من أنفة وعزة وبسالة وشاعرية . حق قدرها بل فوق قدرها ، فامتلأ صدره وفاض حسداً وكرهاً . زد على ذلك اشتهار أصله العربى بالفصاحة والبيان ، وقبيلته اليمنية بالفروسية والشجاعة . وكان له أيضاً من نشأته البدوية ما مكن فيه النزعة المفاخرة . حتى أصبحت فيه طبعاً ؛ ومن معاكسات الزمان، ومناهضة الحساد ، ما جعله يعمد إلى الفخر ، تفريجاً وتعزية للنفس .

قلّ فخر المتنبى بقومه ، وإذا فخر بهم أوجز وأجمل ، لقلة ما عرف عن آبائه الأقربين من المآثر والمفاخر ، ولأنه كان يعد نفسه مفخرة قومه :

لا بقَوْمِى شَرُفت ، بل شرُفوا بى وبنَفْسى فَخَرْتُ ، لا بجُدودِى!

ولذلك حصر فخره فى نفسه ، مطرياً عزمه وصبره ، وتصلبه ، وخبرته :

كأنّى دَحوْتُ الأَرْضَ مِن خِبرَتى بها كأنى بَنَى الإسْكَنْدَرُ السدَّ مِن عزمى

وهو يحب أن يتمثل بعنترة ، فيصف نفسه فى المعمعة ، يوقع بالعدوّ المذعور بالسيف والرمح . وكم تسمعه يتغنى بشاعريته ، ذاكراً مقدرته فى الشعر وانقياد القوافى له :

أنَامُ مِلءَ جفونِى عَن شوارِدِها ويَسْهرُ النّاس جرّاها ويَختَصِم

وسيرورة شعره :

وما الدّهرُ إلّا مِنْ رُواةِ قصائِدى إذا قُلت شِعرًا أَصْبحَ الدّهرُ مُنْشِدا

وبهاء منظوماته وحسن سبكها :

وما قُلتُ مِنْ شِعرٍ تكادُ بيوتُه إذا كُتِبَتْ ، يَبيَضُّ مِنْ نُورِها الحِبرُ

والمتنبي يعد نفسه من مرتبة الأنبياء والملوك ، وكثيراً ما يجعل نفسه فوق الجميع ، ويجمع فيها كل الصفات :

سيَعْلمُ الجمْعُ ممَّنْ ضَمَّ مَجلِسُنا بأنّنى خَيرُ مَن تسْعى بهِ قَدمُ

الخَيلُ واللّيلُ والبَيداءُ تَعرِفُنى والسّيفُ والرّمحُ والقِرطاسُ والقلَمُ

وفخر المتنبي صريح ، جرىء فى كبريائه الجموح ، بل مغال فيها إلى حد مفرط ، وكثيراً ما يبطن كبرياءه بازدراء شنيع يشمل الناس والكون جميعاً .

إلا أن فيه من الأنفة والترفع عن الدنايا ، وجمال الصفات الرجولية واندفاع الروح الشعرية النابضة ، ما يغطى شيئاً من تلك المعايب الضخمة .

ومن أروع المواقف التى توضح لنا نفسية المتنبى فى فخرها واعتدادها ذلك الموقف الجبار الذى وقفه فى حضرة سيف الدولة وحوله الشعراء والعلماء وقد آلموه ، وقد أوغروا عليه صدر أمير حلب ، فقال قصيدة منها :

كم تطلبونَ لنا عيْباً فيُعجزُكم ... ويكرهُ الله ما تأتون والكرمُ
ما أبْعدَ العيبَ والنقصانَ عن شرفى ... أنا الثريا وذانِ الشّيب والهَرَم

أبو فراس :

أما أبو فراس الحمدانى فقد افتخر كل حياته ، حتى فى أسره ، وأقحم الأبيات الفخرية فى أغلب منظومه ، أيًّا كان نوعه .

كان لأبى فراس من عز قبيلته تغلب ، ومكانة آبائه الذين اشتهروا بالشجاعة والجلد وعلوّ الهمة ، داع يستفزه إلى الفخر ، ولا سيما أنه قد تفتحت عيناه للنور فى قصر تملؤه طائفة من حملة السيوف وأرباب الأدب .

ولما شب رأى فى نفسه أنفة وفتوة ناضرة ، وشجاعة ترغب فى قراع الأسنة واقتحام المخاطر ، وشمائل أثارت فى نفسه الإعجاب . ولما خاض ميدان القتال ، وأحرز من الانتصار على مناهضى ابن عمه سيف الدولة ما هز أعطافه طرباً ، هب يترنم بوقائعه ، وتمرسه بالشدة والتصلب فى مجابهة الأخطار .

ثم لم يلبث أن أسر ، فتبدلت حاله ، ولكنه أبى المذلة ، فشرع يتعزى ويتنشط بذكر مآثره وخصاله .

ولعل تيتمه فى حداثة سنه ، الذى حرمه عطف والده وحفاوة المتزلفين ، دعاه إلى الفخر ، استعاضة عن مديح الشعراء .

ولأبى فراس فى قبيلته وذويه مفاخر كثيرة ، منها قصيدة طويلة مطلعها :

لعلَّ خيالَ العامِريَّةِ زائِرُ فيَسعَدَ مَهجورٌ ، ويَسعدَ هاجر

وهو يرى فى قبيلته الخير كله ؛ فإن ماضيها وما لها من الأيام المأثورة ، قبل الإسلام وبعده ، يشهدان بمفاخرها . وناهيك بآل حمدان دليلاً . هم أولو المناقب الرفيعة ، والمآثر الجليلة ، وهم أصحاب الكرم والمجد والشجاعة :

لَئِنْ خُلِقَ الأَنامُ لحَسوِ كأْسٍ ومِزمارٍ وطنبورٍ وعُودِ
فلمْ يُخلَقْ بَنوحَمدانَ إلَّا لمَجْدٍ أَوْ لِبَأْسٍ أو لِجُودِ

وفى آل حمدان السياسة المحنكة . وقد بذلوها فى سبيل الخلافة فأقدموا على الحرب ردعاً للخوارج ، وتذليلاً للثائرين ، وقهراً للروم ، وإخضاعاً للقبائل المتشتتة . قال فى قصيدة يفخر بها على نزار :

تُفضِّلنا الأَنام ولا تُحاشى ونوصَفُ بالجميلِ ولا نحابى
وقدْ علمتْ ربيعَةُ بَل نِزارٌ بأنَّا الرَّأسُ والنَّاسُ الذُّنابى

ولا يقف أبو فراس عند ذكر أسلافه الأبعدين . بل ينتقل إلى تعداد مناقبِ جدِّه . ووالده ، وابن عمه سيف الدولة ، فتبدو له مفخرةٌ باقيةٌ أبد الدهر ، يصونها الأحفاد بعد الأجداد ، ويكملون تشييد ما بنى قبلهم من صروح العز الرفيعة :

لنا شرَفٌ ماضٍ وآخر غابِرُ نَشيدُ كما شادُوا ، ونَبنى كما بَنَوْا

وهكذا يصل الشاعر إلى نفسه . فيفتخر باشتداد عزيمته ، وإقدامه ، وتصلب قوته فى وقائع الحروب ، وأنفته ، وانبساط كفه ، وترفعه عن الدنية .

ومهما يكن من اشتداد النوائب وإيقاعها به ، فلا تزال نفسه تأبى مواطن الذل وتحمل الإهانة وهبوط العزيمة ، ولكنها لا ترى ضيراً فى التشكى والعتاب ، وتذكير الواجب ، وما سوى ذلك مما وسعته الروميات . ذلك لأنه ظل فى حياته شريفاً عزيزاً :

وكيفَ ينتَصفُ الأعداءُ من رجُلٍ العِزُّ أوَّلُهُ والمَجدُ آخرُهُ

يتوكأ أبو فراس فى فخره على مفاخر قدامى العرب من مثل عمرو بن كلثوم والمهلهل، فيكثر من ذكر أسماء الرجال وموقع القتال ، ويجعل فخره قومياً أكثر منه ذاتياً . إلا أنه لا يجيد وصف القتال، ولا يطيل فيه كما كان يفعل المتنبى . فكانت قصائده فى هذا الباب تعداد مفاخر تزخر بعواطف الزهو والمجد ، وينفخ فيها نفس عال فيه من الكبرياء والعزة القومية الشىء الكثير . ولا يخلو فخر أبى فراس من الغلو ولكنه غير مفرط ، ولا يخلو من اللطف الذى يسمو به عن الفخر الصبيانى . وأبو فراس صادق العاطفة ، مندفع الحماسة وإن كان ضعيف الوصف ، غير دقيق التصوير .

زد على ذلك أن لفخر أبى فراس قيمة تاريخية كبيرة لأنه سجل لأعمال الرجل ومآثر قومه وأجداده .

الشريف الرضى :

أما الشريف الرضى فهو من أشهر شعراء الفخر عند العرب ومن شعره فى الفخر قوله :

لِغَيْرِ ٱلْعُلَى مِنِّى ٱلْقِلَى وَٱلتَّجَنُّبُ وَلَوْلَا ٱلْعُلَى مَا كُنْتُ فِى ٱلْحُبِّ أَرْغَبُ
إِذَا ٱللهُ لَمْ يَعْذِرْكَ فِيمَا تَرُومُهُ فَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا عَاذِلٌ وَمُؤَنِّبُ
مَلَكْتُ بِحِلْمِى فُرْصَةً مَا ٱسْتَرَقَّهَا مِنَ ٱلدَّهْرِ مَفْتُولُ ٱلذِّرَاعَيْنِ أَغْلَبُ

فَإِنْ تَكُ سِنِّى مَا تَطَاوَلَ بَاعُهَا ... فَلِي مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَجْدِ قَلْبٌ مُدَرَّبُ
فَحَسْبِيَ أَنِّى فِى ٱلْأَعَادِي مُبَغَّضٌ ... وَأَنِّى إِلَى غُرِّ ٱلْمَعَالِى مُحَبَّبُ
وَلِلْحِلْمِ أَوْقَاتٌ ، وَلِلْجَهْلِ مِثْلُهَا ... وَلَكِنَّ أَيَّامِي إِلَى ٱلْحِلْمِ أَقْرَبُ
يَصُولُ عَلَيَّ ٱلْجَاهِلُونَ ، وَأَعْتَلِى ... وَيُعْجَمُ فِيَّ ٱلْقَائِلُونَ ، وَأُعْرِبُ
يَرَوْنَ ٱحْتِمَالِي غُصَّةً وَيَزِيدُهُمْ ... لَوَاعِجَ ضِغْنٍ أَنَّنِي لَسْتُ أَغْضَبُ
وَأُعْرِضُ عَنْ كَأْسِ ٱلنَّدِيمِ كَأَنَّهَا ... وَمِيضُ غَمَامٍ غَائِرِ ٱلْمُزْنِ خُلَّبُ
وَقُورٌ فَلَا ٱلْأَلْحَانُ تَأْسِرُ عَزْمَتِي ... وَلَا تَمْكُرُ ٱلصَّهْبَاءُ بِي حِينَ أَشْرَبُ
وَلَا أَعْرِفُ ٱلْفَحْشَاءَ إِلَّا بِوَصْفِهَا ... وَلَا أَنْطِقُ ٱلْعَوْرَاءَ وَٱلْقَلْبُ مُغْضَبُ
تَحَلَّمُ عَنْ كَرِّ ٱلْقَوَارِصِ شِيمَتِى ... كَأَنَّ مُعِيدَ ٱلذَّمِّ بِٱلْمَدْحِ مُطْنِبُ
لِسَانِي حَصَاةٌ يَقْرَعُ ٱلْجَهْلَ بِٱلْحِجَى ... إِذَا نَالَ مِنِّى ٱلْعَاضِهُ ٱلْمُتَوَثِّبُ
وَلَسْتُ بِرَاضٍ أَنْ تَمَسَّ عَزَائِمِي ... فُضَالَاتُ مَا يُعْطِى ٱلزَّمَانُ وَيَسْلُبُ
غَرَائِبُ آدَابٍ حَبَانِي بِحِفْظِهَا ... زَمَانِي وَصَرْفُ ٱلدَّهْرِ نِعْمَ ٱلْمُؤَدِّبُ

ويتجلى لنا الشريف الرضى رجل عزة وإباء وعزم ، ينظر إلى أصله وإذا هو فى دوحة العلياء من أكرم فرع ، وإذا هو مدعو إلى كل كبير عظيم ، وإذا نفسه أهل لذلك العظيم ؛ وينظر إلى حاله وإذا هو غير ما دعى إليه وخلق لأجله ، وإذا فى نفسه حرب جبارة ، وثورة سخط ضخمة فى وجه الزمان الذى يعادى الأحرار ، وفى وجه الناس الذين يقومون فى وجه كل عزيز طموح . ويتجلى لنا الشريف حزيناً فى قرارة نفسه ، متألماً فى أعماق قلبه ، وذلك أنه لا يستطيع القبول بالظلم ، والاستكانة للذل ، فهو ينتفض انتفاضة النسر الجريح ، وينظر إلى خصومه بعين حادة يلتمع فيها الشرر ، وبقلب جرىء لا يخاف سيداً

ولا مسوداً ؛ هكذا يتجلى لنا الشريف من خلال شعره ، فهو نفس كبيرة أبية ، وقلب رقيق شديد الانفعال ، وثاب إلى المعالى ، نباض فى وجه الظلم ، جرىء على رقته ، بطاش على شدة انفعاله ، لا يخلو من زهو وكبرياء ، ولكن تلك الكبرياء هى أقرب إلى الأنفة منها إلى الكبرياء .

وقد أراد الشريف أن يقلد المتنبى فى فخره ، فجاراه فى نفحته الملحمية ونبضاته التوثبية ، وترفعه عن كل حقير دنىء ، وإنه وإن لم يبلغه فى قوة انطلاق شعره ، وفى سكه للأبيات سكاً شديد الوقع ، فقد وجد من شرف أصله ، وسمو نفسه ، ومواهبه العالية ، وسجاياه النادرة ، ومقامه الاجتماعى ، ما لم يتوفر لأبى الطيب ، ولهذا فقد اتسع نطاق فخره ، وازدحمت معانيه ، وتنوعت أفكاره ، ولم يلجأ إلى الإحالة ليخفى ضعفاً أو أصلاً حقيراً أو مقاماً اجتماعياً غير لائق به . ومن ثم فقدكان فخر الشريف أقرب إلى النفس ، وأدخل فى العقل ، وآنس للأذن .

وقد فخر الشريف بقومه وفخر بنفسه ؛ أما فخره بقومه فهو فخر العزة والإعجاب واللوعة ، فخر من ينظر إلى الدوحة الكريمة فيتعالى فى سمائها ، ويعرق بين أوراقها فى عشق ووله ، ثم ينظر إلى ما قطع من أغصانها ومن قتل من آل البيت فتذوب نفسه أسى وينطلق لسانه شاكياً ، مهدداً ، وإذا شعره شدة ولين ، ومزيج من قسوة ورقة . وأما فخره بنفسه فهو تطلع إلى العلياء ، وتحديق بالمجد والإباء ، وإعجاب بشجاعة القلب ، وفيض الشاعرية ، وانطلاق الآمال .

وإنك لتشعر ، فى كلام الشاعر ، برفعة ترفعك إلى أجوائها ، وبجو ملحمى يحاول الشاعر أن يضخم عناصر القوة فيه بالتشخيص والتمثيل وتشديد اللفظ والقافية ؛ وإنك لتشعر أيضاً أن فى نفس الرجل انصهاراً مؤلماً يرسل بين سطور الفخر آهات الشكوى والعتاب ، كما يرسل زمجرات السخط والتهديد ، وإنك تشعر على كل حال بانسجام رائع ، وعذوبة أخاذة ، وعمق فى التفكير ، وبعد فى اللمح . وتعجبك من الشريف صراحته وجرأته ، كما يعجبك إيجازه وابتعاده

عن التفصيل والإسهاب . ويروقك اختيار الشريف لألفاظه ، وحسن تركيبه لأبياته ، فهى بدوية حضرية ، مركبة تركيباً حسن الوقع ، رائع الإيقاع .

المعرى :

وأبو العلاء المعرى هو فيلسوف الشعراء . له عدة قصائد فى الفخر أشهرها قصيدتان : الأولى همزية ومطلعها :

وراثى أمامٌ والأَمامُ وراءُ ... إذا أنا لم تكبِرْنى الكُبَراءُ

والثانية لامية ومطلعها :

ألا فى سبيلِ المجدِ ما أنا فاعِلُ ... عفافٌ وإقدامٌ وحَزْمٌ ونائِلُ

والشاعر يفخر بنفسه وبقومه . أما نفسه فيفخر بصفاتها الأدبية من شجاعة وكرم وذكاء . وأما قومه فيفخر بسلطانهم على الشعر ، واستيلائهم على الأرض ، وغناهم عن الناس ، وافتقار الناس إلى معروفهم .

وأبو العلاء يكد ويجهد فى البرهان عن مفاخره ، وكأنه يخشى من علته وقبح مظهره أن يحولا دون تقدير الناس له ، فينظم الشعر النابض بنزعات شخصيته القوية ولا يتحرج من المبالغة فى التمدح . ويتأتى له فى موقفه هذا أبيات حكمية يتجلى فيها فضل الروح على المادة ، وفضل الغنى الداخلى على الثروة المادية ، فيقول مثلاً :

وإن كان فى لُبْسِ الفتى شرفٌ لهُ ... فما السيفُ إلّا غِمْدُه والحمائلُ

الطغرائى :

أما الطغرائى فله فى الفخر قصيدة شهيرة عرفت بلامية العجم ومطلعها :

أَصالةُ الرأى صَانَتْنى عنِ الخَطَلِ ... وحِلْيَةُ الفَضْلِ زانتنى لدى العَطَلِ

مَجْدِى أخيرًا ومجدى أولاً شَرَعٌ ... والشَّمْسُ رأْدَ الضحى كالشمسِ فى الطَّفَلِ

فيمَ الإقامَةُ بالزَّوْرَاء لا سَكنى فيها ولا ناقتى فيها ولا جَمَلِي

وهذه القصيدة من أروع ما كتب فى الفخر وعزة النفس . وقد أودعها الشاعر ثورة نفسه أمام الحدثان ، وراح فيها يفصل أمجاده ، ويصور طوايا تلك النفس ، ويتوثب توثباً حافلاً بالقيم المعنوية ، حافلاً بالرصانة المتجبرة ، التى لا تذللها الصيعاب ولا تلوى بها الأيام ، فى انطلاق شعرى مملوء بالإبداع .

الفخر الذاتى بعد العهد العباسى

وصل الفخر الذاتى سيره عند العرب ، وقد أخذ يتقلص ظله شيئاً فشيئاً ويتضاءل فى العصور المتأخرة، لانتشار الحضارة الحديثة وازدياد الوعي الشخصى. ولئن سمعت له أصداء من آن إلى آخر فما ذلك إلا ترديد للنغمات السابقة والأساليب السابقة فى غير انطلاق ولا عمق .

الفصل الثانى

الفخر الحزبى

نما هذا النوع من الشعر فى العهد الأموى ، وقد اصطبغ بصبغة السياسة ، وذلك أنه لما بويع على بن أبى طالب وقع خلاف سياسى شديد فى شأن الخلافة ، وقد اتهم على بتراخيه فى القبض على قتلة عثمان بن عفان ، وقام فى وجهه ابن الزبير يناصبه العداء ، كما قام فى وجهه معاوية بن أبى سفيان يطالب بدم عثمان ويطمع فى الملك ؛ وقام فى وجه على ومعاوية حزب الخوارج يحارب هذا وذاك . وهكذا انقسم العرب أحزاباً ، فمن شيعة يناصرون بيت على ، إلى زبيريين يشايعون آل الزبير ، إلى خوارج ينهضون فى وجه الاستبداد ؛ إلى أمويين على عرش الخلافة يذودون عن سلطانهم بشدة ، وهكذا كان لكل حزب شعراء يساندونه بأقلامهم ، وكان شعرهم حماسيًّا شديد اللهجة لأنه شعر العواطف المتناحرة فى سبيل الحياة والدين والحرية والسيادة . ومن أولئك الشعراء قطرى ابن الفجاءة ، وعمران بن حطان ، والطرماح بن حكيم ، وعمرو بن الحصين للخوارج ، والكميت الأسدى وكثير عزة للشيعة ، وعبيد الله بن قيس الرقيات للزبيريين ، وأبو العباس الأعمى وأعشى ربيعة والنابغة الشيبانى وعدى بن الرماح وكعب الأشقرى للأمويين .

وإلى جنب هؤلاء جميعاً ثلاثة شعراء هم فى الذروة لذلك العهد ، أعنى بهم الأخطل والفرزدق وجريراً . وإنهم ، وإن لم يكونوا من شعراء السياسة بكل ما فى الكلمة من معنى ، لتغلب العصبية القبلية عليهم ، قد عاشوا فى ظل بنى أمية واتصلوا بالأحزاب السياسية ورأوا فيها وسيلة يتذرعون بها للوصول إلى غاياتهم القبلية ،

ثم إنهم فى ملاحياتهم الشهيرة مزجوا الفخر الذاتى بالفخر الحماسى والفخر الحزبى ولذلك لم نر بأساً فى التعرض لهم فى هذا الباب .

وإننا إذا ألقينا نظرة على الفخر الحزبى فى هذا العهد نرجع بما رجع به الدكتور زكى المحاسنى إذ قال : « لا يكاد يأخذ بإعجابى وصف حرب قاله أحد شعراء العصر الأموى ، فأرى خلاله رهط المقاتلين يتلاحمون بين الحياة والموت ، وألمح لمعات الأسنة والسيوف تقع فى اللبات والنحور ، وأسمع زمازم الجيش تمور فى حومة الوغى ، حتى يعكر علىّ صفاء هذه الصورة وبراعة هذا الوصف أبيات فى أواخر القصيدة أو فى أثنائها ، يحاول بها الشاعر أن يعفى على آثار قوم آخرين فى الشجاعة والبأس . وقد لا يتورع عن إيذائهم بالهجاء ، وسلبهم كل خصال المروءة والحمية التى عرفت فيهم . فهو أبداً يسعى إلى إعلاء قومه ، فيخلع عليهم صفات المكارم والفضائل ، وينزعها عن سواهم ، حتى بات كثير من أقوال هذه الطائفة من الشعراء منوطاً علاؤه بخفض غيرهم . وكلما زاد تهجين الشاعر لأعدائه وذمه إياهم ، انطلق جناحاه فى أجواء الثناء على نفسه وعلى قومه . وقد تأثر الشعر العربى من فواتحه إلى خواتيمه فى شعر الفخر ، فوجدته يمضى على هذا الغرار فى عصر بنى أمية . فإذا كان الشعر فى وصف الحرب تناول قائلوه هذه الطريقة ، فذموا شجاعة غيرهم ومدحوا أنفسهم وبطولتهم . وقد لا يظل هذا المدح والهجاء فى قصيدة الشاعر الواحد ، وإنما يتجاوزانه إلى أكثر من شاعر ، فينبرى من يقول قصيدة أو أبياناً فى ذم خصومه فى الحرب ، وحمد قومه ، فيتصدى له شاعر آخر يرد عليه بذمه ومدح نفسه وقومه ، ثم يدخل آخرون فى الحلقة بمثل ديدن السابقين ، فتصبح معالم الوصف الصادق مشوهة على من جاء يتقرى ، فيحار متلمساً أى قوم أشجع وأفتك ، وأشد بأساً فى وقيعة ، وأى معشر فيهم سجايا الفروسية ، ولأى كتب النصر ؟ » .

ا — شعر الخوارج :

شعر الحرب عند الخوارج صورة ثورة دينية عنيدة ، وصورة شجاعة جبارة ؛ هو شعر كتب بشفار السيوف ، ورؤوس الرماح ؛ هو شعر الاستماتة فى سبيل الغاية المثلى التى يناضلون لأجلها ، والتى يحسمونها فى قولهم أبداً : « لا حكم إلا لله ! »

وقطرى بن الفجاءة هو ذلك الشاعر الذى يضطرم شعره حماسة وإقداماً ، وهو الذى خاض المعارك فى بطولة ما بعدها بطولة ، وقد اشترك فى حرب « دولاب » التى جهز إليها ابن الزبير أمير البصرة جيشاً لجباً ، والتى دامت عشرين يوماً . وقد انتصر الخوارج انتصاراً عظيما ، فقال ابن الفجاءة ذاكراً زوجته أم حكيم وواصفاً الحرب :

لعمرُك إنِّى فى الحياةِ لزاهدٌ ... وفِى العيشِ مالم ألقَ أمّ حكيمِ ..

ولو شهدَتْنِى يَوْم دولابَ أبصرتْ ... طِعَانَ فتى فى الحرب غير ذميمِ

غداةَ طَغَتْ فِى الماءِ بكربن وَائلٍ ... وعجنا صدورَ الخيلِ نحو تميمِ

هكذا كان قطرى بن الفجاءة : عقيدة ثابتة ، وشجاعة فوارة . فهو رجل تدين ، وهو رجل حرب ، وشعره حافل بالروح « التى تزجر المتخاذلين ، وتنضح بالقتال ، لأن الحياة زائلة ، وشرف الموت على حد السيوف أعز وأبقى ».

أما عمرو بن الحصين فهو من شعراء الخوارج أيضاً وقد شهد يوم قديد — وهو مكان بالقرب من المدينة — ووصف الخوارج فى حربهم تلك .

ب — شعر الشيعة :

كان أهل الشيعة فى شعرهم الحربى أقل فروسية من الخوارج ، وكانوا ذوى ثورة وطمع فى الخلافة ، ولذلك وجه إليهم بنو أمية أشد ضرباتهم . وشعر الشيعة

هو شعر السخط والحزن ، وهو يرمى إلى الجهاد فى سبيل الخلافة ، وذلك فى أسلوب يتقلب بين الهدوء والثورة ، والرقة والحزن ، بحسب ما تقتضيه حال الاحتجاج أو الغضب أو الألم .

وللكميت بن زيد الأسدى الشاعر الشيعى فى هاشمياته قصيدتان رائعتان فى الحرب ، قال فى إحداهما واصفاً أبطال شيعته :

فهُمُ الأُسْدُ فى الوغى لا اللواتى ... بين خيس العرينِ والآجامِ
أُسْدُ حربٍ غُيوثُ جَدْبٍ بَهَالِيـ ... ـلُ مَقَاويلُ غير ما أَفْدَامِ
سادَةٌ ذادَةٌ عن الخُرّدِ البيـ ... ـضِ إذا اليومُ صارَ كالأَيّامِ
لا كعبدِ المليكِ أو كوليدٍ ... أو سليمانَ بَعْدُ أو كهشامِ

حـ — شعر الزبيريين :

لقد أنكر الزبيريون على بنى أمية جعلهم الخلافة وراثة فيما بينهم دون سائر قريش . وكانوا من العاملين فى سبيل الأرستقراطية .

وشعر ابن قيس الرقيات حافل بوصف قتال الزبيريين وإقدامهم ، حافل بوصف بطولته ، مملوء بالحماسة والفروسية . قال يمدح ابن الزبير وأخاه مصعباً :

والزُّبَيْر الذى أَجابَ رسولَ اللّـ ... ـهِ فى الكَرْب والبلاءُ بلاءُ
والذى نغّص ابن دومة ما تو ... حى الشياطين ، والسيوفُ ظِمَاءُ
فأباح العِراقَ يضربُ بالمُنْـ ... ـصل صلْتاً ، وفى الضِّراب غلاءُ
إنّما مُصعَبٌ شهابٌ من اللّـ ... ـه تجلّت عن وجههِ الظّلْماءُ
مُلكُه مُلكُ قوّةٍ ليسَ فيه ... جَبَروتٌ ولا به كِبْرياءُ

ولما فر الشاعر من وجه بنى أمية والتحق بفلسطين نازلاً على أهل له من بنى كنانة ، نظم قصيدة استهلها بالغزل ثم فخر بقومه وفروسيته ، قال :

حلَقٌ من بنى كِنانَة حولِى   بفلَسْطِينَ يُسرعونَ الرُّكوبَا

من رجالٍ تُفنِى الرجالَ وخَيْلٍ   رجُمٍ بالقنا تسدُّ الغيوبَا

لا يُبالونَ مَنْ أقامَ إذا ما   كشفوا بالسُّيوفِ يوماً عصيبا

إنَّ قوم الفتى همُ الكنْزُ فى دُنْـ   ـياه والحالُ يسرعُ التَّقْلِيبا ..

إلى غير ذلك مما حفلت به قصائد الشاعر ومما يطلعنا على موقفه وهو القرشى الأصل ، الزبيرى الهوى ، الذى مدح عبد الله بن الزبير فى حربه وفى سلمه ، والذى أراد لقومه العزة والسلطان ، وصارح بنى أمية العداوة ، وكان بوقاً مدوياً على كل حال .

د ـ شعر الأمويين :

رأى الناس فى الأمويين رجال سياسة ، وطلاب دنيا وملك ، اعتمدوا على قوة السيف والمال والعقل فى تأييد عرشهم ، فجنح إليهم الشعب طمعاً فى مالهم أو خوفاً من بأسهم . وكان أكثر الشعراء المنتمين إلى حزبهم من ذوى المنفعة ، الذين يمدحون ملوكهم لأجل الطمع أو الخوف ، وليس فى شعرهم كثير جدة من الناحية الفنية ، فهو يدور حول المديح بالصفات العامة كالكرم ، والحلم ، وحسن السياسة ، والمجد القديم ، والحظ المواتى وما إلى ذلك . ومن أخلص الشعراء عاطفة لبنى أمية كعب الأشقرى ، الذى كان من أعظم وصافى الحرب فى العصر الأموى .

* كعب الأشقرى : هو من الشعراء الفرسان الذين اشتركوا فى الفتح وشهدوا حروب الأزارقة . وقد نظم قصيدة مشهورة وأنشدها فى حضرة الحجاج لما تغلب المهلب بن أبى صفرة على الخوارج . وهى قصيدة تقع فى أربعة وثمانين

بيتاً ، وتدور كلها حول الحرب ووصف القتال تتبع فيها الشاعر جيش بنى أمية وجيش الخوارج فى مختلف المواقف ، فى لهجة حماسية شديدة ، وإليك شيئاً منها :

يا حفصُ إنّى عدانى عَنكُمُ السَّفَرُ ... وقَدْ أَرقْتُ فآذى عَيْنِيَ السَّهرُ
علقْتُ ياكَعْبُ بعْدَ الشَّيْبِ غانِيَةً ... والشَّيْبُ فيه عن الأهواءِ مزْدَجَرُ
واشتدَّتِ الحربُ والبلوى وحلّ بنا ... أَمْرٌ تُشَمَّرُ فى أمثالِهِ الأُزُرُ
تلبَّسوا لِقراعِ الحربِ بِزَّتَها ... فأصبحوا من وراءِ الجِسْرِ قد عَبَرُوا
ساروا بألويةٍ للمجدِ قد رُفِعَتْ ... وتَحْتَهن ليوثٌ فى الوغى وُقُرُ
قَتْلى هنالِكَ لا عَقْلٌ ولا قَوَدٌ ... منَّا ومِنْهُمْ دماءٌ سَفكُها هَدَرُ
باتَتْ كتائبُنا تَرْدى مُسوَّمَةً ... حولَ المهَلّبِ حتّى نَوَّر القَمرُ
عبّوا جنودَهم بالسَّفْح إذ نَزَلُوا ... بكازَرونَ فما عزُّوا ولا ظَفِروا
لاقوا كتائبَ لا يخلون ثَغرهُمُ ... فيهم على من يقاسى حربَهمْ صَعَرُ
صفّانِ بالقاعِ كالطَّوْدَيْنِ بينَهُمَا ... كالبرقِ يَلْمَع حتى يشخص البصَرُ
يمشونَ فى البَيْض والأبدانُ إذ وَرَدُوا ... مَشْيَ الزَّوامل تهدى صفَّهُمْ زُمرُ(١)
وشيخنا حَوْله منّا ململمةٌ ... حيٌّ من الأزدِ فيما نابَهمْ صُبُرُ
ندوسُهُمْ بِعَناجيج مجَفّفَةٍ ... وبَيْنَنَا ثَمَّ من صمِّ القنا كُسُرُ(٢)
فى معركٍ تحسب القَتْلى بساحَتِهِ ... أَعْجَازَ نَخْلٍ زفتْهُ الريح يَنْقَعرُ
فى كلِّ يومٍ تلاقى الأزد مفظعةً ... يشيب فى ساعةٍ من هولها الشَّعَرُ

---

(١) الزوامل : الإبل المحملة .

(٢) العناجيج : جياد الخيل والإبل .

والأزد قومى خيارُ القومِ قد علموا إذا قرومهم يوم الوغَى خطروا
حيٌّ بأسيافهمْ يبغونَ مجدَهُمُ إنَّ المكارمَ فى المكروه تبتدرُ
لولا المهلَّب للجيش الذى وردوا أنهـار كرمان بعد الله ما صدروا

ويمضى كعب الأشقرى فى ملحمته هذه ، وإذا أنت أمام حرب طاحنة يشيب لهولها الشعر ، وقد التقى الجيشان فى زرد الحديد ، وفوقهم البنود خفاقة ، وتحتهم الخيول المطهمة . والجيشان طودا قوّة وشجاعة وبأس . ولما اعتصم الخوارج وراء الجسر ، جاز إليهم الأمويون، فالتحم القتال ولمعت السيوف ، وانقض الهول انقضاض الصواعق ، وجرت الدماء سيولاً ، فانسل الخوارج من المعركة ، فاتبعهم جيش بنى أمية ، وعاد القتال إلى الالتحام ، واشتدت الحال على الخوارج ، فهلك منهم عدد كبير ولاذ الباقون بالفرار .

وهكذا كان الأشقرىّ من أعظم وصّاف الحرب فى العهد الأموىّ ، وهكذا كانت قصيدته من أروع القصائد الحربية لأنها جمعت الاستيفاء ، إلى الدقّة ، إلى التدفق والانطلاق ، إلى الواقعية المضخمة تضخيما ملحمياً لا يخرج عن حدود المعقول ، إلى تفصيل مواقف الجيشين وتتبع حركاتهما فى لهفة وصدق عاطفة ، إلى الاعتراف بمناعة صفوف الأعداء وحسن بلائهم فى الطعان .

ولئن فخر الأشقرى بقومه الأزد فإنه كان من الشعراء النادرين الذين أخلصوا العاطفة لبنى أمية فصدقوا فى وصف حروبهم ، ومدحوهم بما كانوا له أهلاً من الفعال والخصال الحميدة .

هـ — شعر المثلث الأموى :

وهنالك شعراء ثلاثة عرفوا بالمثلث الأموى ، وكان مدار فخرهم حول الذات

والقبيلة والحزب .. وهم الأخطل والفرزدق وجرير .

وللحرب والفخر فى شعر الأخطل محل واسع ؛ أما الحرب فقد أتى منها على ذكر عدة مواقع كانت لقومه على أعدائهم . ذكر يوم الثرثار — وهو واد عظيم فى الجزيرة السورية يمده الماء فى الشتاء — وقد دارت رحى القتال فيه بين بنى تغلب وقبائل القيسية ، وكان يوماً شديد الوطأة ، يوماً اربدت سماؤه ، وانتشر الموت فى صفوف المتقاتلين انتشاراً عظيما ، وجرت الدماء على الأرض سيولاً ، وأثبت كل بطل فى مستنقع الموت رجله ، وقال لها من تحت أخمصك الحشر .

وذكر الأخطل يوم « إراب » وكان النصر فيه لقوم الأخطل على القيسية وقوم جرير ، فقال :

ولقد سما لكُمُ الهُذَيْل فنالكُمْ ... بإرابَ حيثُ يقسِّم الأنفالا [1]

فى فَيْلقٍ يدعو الأراقمَ لم تكُنْ ... فُرْسانه عُزْلاً ولا أكْفَالاَ [2]

بالخيلِ ساهمةَ الوجوهِ كأنّما ... خالَطْنَ مِنْ عملِ الوجيفِ سلالاَ

فسقين من عادينَ كأساً مرّةً ... وأزَلْنَ حدَّ بنى الحُبَابِ فزالاَ

فانعَقْ بضأنِكَ يا جرير فإنّما ... منّتْكَ نفْسُكَ فى الخَلاَءِ ضَلالاَ

وأما فخر الأخطل فقد اصطبغ بالصبغة السياسية ، وهو يدخل فى المدح والهجاء مظهراً لبنى أمية ما لتغلب من الأيادى البيض ، ومظهراً ما لصاحبه من كرم الأصل ومن التفوق على خصمه . واصطبغ فخر الأخطل أيضاً بالصبغة الجاهلية التى تعتمد تعداد الأمجاد القبلية فى النفس ، والتى لمسناها فى شعره الحربى قال :

---

(١) الهذيل : هو الهذيل بن هبيرة التغلبى .

(٢) الأكفال ج كفل وهو الرجل يكون فى مؤخر الحرب همته التأخر والفرار .

بَنِى أُمَيَّةَ قد ناضلْتُ دونَكُمُ أبناءَ قومٍ هُمُ آوَوْا وهم نَصَروا [1]
أفحَمْتُ عنكُمْ بنِى النَّجارِ قدعلِمَتْ عُلْيَا معدٍّ وكانوا طالَما هدروا [2]
حتَّى استكانُوا وهمْ مِنِّى على مَضَضٍ والقول ينفُذُ ما لا تَنْفُذُ الإبَرُ

أما فخر الفرزدق فقد قيل فيه :

« ديوان الفرزدق فى حقيقته يكاد يكون دفاعاً خالصاً عن قومه ، وتمجيداً غالياً ، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خطب ، قيلت فى مدحهم والفخر بهم فخراً لا تجف مادته فى نفسه ، إذ كان يستمد من معين لا ينضب ، وكأنه يغرف من بحر تمده أبحر ، فهو لسان قبيلته ، وسحب الفخر بها ما تزال تنعقد شعراً على هذا اللسان الرطب بروائع القول وجزله » .

والفرزدق يجعل قصائد الهجو فى جو وسيع من الفخر والتبجح ؛ وقد يفتتحها بالفخر . فيأتى خصمه أبداً من عل ، ولهذا قيل : « الفرزدق إذا هجا ارتفع » . يرتفع على جرير خصوصاً ، وكان جرير من أحقر بيوت تميم ، والفرزدق من أشرفها ؛ فكلما أقبل الفرزدق على هجائه تعالى عليه ، ووازن بين الشرف والحقارة ، وأخذ بتعداد آبائه وأجداده ، مفصلاً مآثرهم فى الجاهلية والإسلام . وهكذا كان قومه فى نظره أعز العرب بيتاً ، وأرفعهم شرفاً ، وأوسعهم خيراً وكرماً . هم ذوو العقول التى توازى الجبال ، والثبات الذى لا يتزعزع ، والشجاعة التى تفوق كل شجاعة . . . وهكذا كان هو فى نظر نفسه كريماً كالبحر ، شجاعاً كالأسد ، رفيعاً كالبدر ، مؤلماً كالحية ، قد ورث الشعر من امرئ القيس والمهلهل وطرفة والأعشى وغيرهم من كبار الشعراء .

---

(١) يعنى الأنصار .

(٢) بنو النجار : قوم من الأنصار منهم الشاعر حسان بن ثابت . عليا معد : يريد بنى قريش.

وإذا فخر الفرزدق اتسعت آفاقه ، واشتدت لهجته ، وطال نفسه ، وقويت عبارته ، ولكنه يضطرب فى ميدان قلما يتبدل ، ويأتى بمعان قليلة التنوع .

وقد مزج جرير المدح بالفخر ، والهجاء بوصف الحرب وذكر الأيام ، واكثر من وصف الخيل وتصوير الفروسية .

وهكذا فخر جرير بسيفه ولسانه ، وإذا سيفه أمضى السيوف وإذا لسانه شديد الوطأة :

جَرِىءُ الجَنَانِ لاأهابُ من الرَّدى ‏ إذا ماجَعَلْتُ السَّيْفَ قبضَ بَنانِيا

وليس لسيفى فى العظام بَقِيَّةٌ ‏ ولَلسَّيْفُ أشوى وقعة من لِسَانِيا

هذا هو سيف جرير، وهذا لسانه ، وللسيف عنده أنجع من اللسان فى رقاب جماعة أضاعوا الشرف ، وأضاعوا كلّ إحساس أمام كلمة تُقال ؛ ولوم يوجَّه، وهجاء ينشر . وسيفه بتار يمده قلب جرىء ، وساعد شديد ، ونفس لا تهاب الموت .

وهكذا فخر جرير بشاعريته التى تنقض على الشعراء بالصواعق فتَرديهم صفوفاً صفوفاً ! وفخر بإسلامه ومضريته — وفى مُضر النبوّة والخلافة — ، وتعالى بهما على الأخطل التغلبى وقال :

إنَّ الَّذى حرمَ المكارِمَ تَغْلِباً ‏ جعَلَ الخِلافَةَ والنُّبوَّةَ فينا

وإذا هجا الفرزدق اصطدم بأصله، وأصل الفرزدق من أصله ، وكلاهما من تميم ، وتميم أصل كريم ، وشجرة باسقة الأغصان ، وفروة من ذرى المجد :

إذا غَضِبت عليك بنو تميمٍ ‏ حسبتَ الناسَ كلَّهُمُ غضابَا

إلا أن لتميم فروعاً عدة ، وفرع الفرزدق أشرف من فرع جرير ، ولهذا لم يستطع جرير أن يطاول الفرزدق فى الآباء والأجداد ، ولم يستطع أن يجول معه فى هذا الميدان جولات واسعة ، فاكتفى بذكر بعض الأيام التى كانت لبنى يربوع قومه ، كما أعين على الفرزدق بأيام خذل فيها قومه بنو دارم وأخواله بنو ضبة .

وإذا هجا جرير الأخطل ذكر حروب قومه وهم حلفاء القيسية وذكر مواقعهم مع بنى تغلب وقال :

ونَعْرف حقَّ النَّازلينَ ولم يزَلْ	فوارسُنَا يَحْمونَ قاصِيَةَ السَّرْبِ
عَلى مُقْرَبَاتٍ هنَّ مَعْقِلُ من جنى	وسُمُّ العِدى والمُنْجِيَاتُ من الكَرْبِ
ألا رُبَّ جَبَّارٍ وطِئْنَ جَبِينَه	صريعاً ونهب قد حوين إلى نَهْبِ
وقد أوْرَدَتْ قَيْسٌ عليك وخِنْدِفٌ	فوارس هدَّمْنَ الحياضَ التى تجبى

أما فخر جرير فكان استعلاء وتعبيراً ، وكان ممزوجاً بالهجاء ، وكان انقضاضاً صاعقاً مدوياً ، يحفل بالعاطفة الصاخبة القوية ، وتعصف به موسيقى حربية أخاذة .

* * *

تلك كانت مظاهر الفخر فى العهد الأموى ، وقد تطاحنت فيه الأحزاب تطاحناً شديداً ؛ وإن من تتبع الشعر العربى فى هذا العهد يجده شديد الاقتراب من الشعر الجاهلى فى حقل الحماسة والفخر ، شديد النزوع إلى ذكر الأيام وتعداد الأمجاد ؛ وهو إلى ذلك قد امتاز باتساع الآفاق الاجتماعية والسياسية والدينية ، وازداد غلواً وإغراقاً فى وصف الحروب وأدواتها ، وازداد تتبعاً لحركات الجيوش ، كما ازداد نزوعاً إلى التعبير بالمجازى ، والإقذاع فى ذلك التعبير .

الفصل الثالث

الفخر الديني
أو الحماسة الدينية

لما جاء الإسلام ضم العرب تحت لواء واحد ، ودعاهم إلى بسط سلطانه ، فكانت الخطوة الأولى فى ذلك « غزوات » الرسول (صلعم) ، ثم كانت الخطوات الأخرى حروب الفتح ، وكان الميدان واسعاً جداً يمتد من شبه الجزيرة ، إلى مصر إلى العراق ، إلى الشام ، إلى فارس ، إلى أوربة ؛ وكان الأبطال ورجال الحرب والسياسة كوكبات كوكبات ! وكان العراك شديداً ، والجيوش جرارة ، وكان الشعر ينطلق مدوياً ، وهو لا يختلف فى شيء عن الحماسة الجاهلية إلا فى مصدره الديني ، وصبغته الدينية الجديدة ، وخروجه عن حدود الفردية والقبلية إلى أجواء القومية العربية الإسلامية .

ومما يروى فى هذا الصدد أن عياض بن غنم كتب إلى خالد بن الوليد يستنجده حين كان يحاصر « دومة الجندل » ، فكتب إليه خالد : من خالد إلى عياض : إياك أريد .

لَبثْ قليلاً تَأْتِكَ الحلائب يَحْمِلْنَ آساداً عليها القاشب[1]
كتائبٌ تتبَعها كتائِب

ولما تغلب المثنى بن حارثة الشيباني ، فى عهد عمر بن الخطاب ، على الفرس

(١) الحلائب : النوق . القاشب : السيف الصقيل .

فى موقعة « البويب » بالعراق ، وقتل مهران قائدهم ، قال الأعور الشَّنِّى مشيداً ببطولة المثنى بن حارثة :

هاجَتْ لأعورَ دارُ الحيِّ أحزانَا ... واستبدلَتْ بعد عبد القيسِ هَمْدَانَا

وقد أرانا بها والشَّمْلُ مجتَمِـعٌ ... إذْ بالنُّخَيْلَة قَتْلى جندِ مِهرانَا (١)

أزمانَ سارَ المثنَّى بالخُيولِ لَهمْ ... فقُتِّل القوم من فُرْسٍ وجِيلانَا

سَما لأجْنادِ مِهْرانٍ وشيعته ... حتَّى أبادهم مَثْنَى ووُحْدَانَا

ما إنْ رأيْنا أميرًا بالعراقِ مضى ... مثل المثنَّى الذى من آلِ شَيْبانَا

إنَّ المثنَّى الأميرُ القَرْمُ لاَ كذِبٌ ... فى الحَرْبِ أشْجَعُ من ليثٍ بخفَّانَا (٢)

وفى يوم « مؤتة » ، وقد قاتل العرب قوماً يفوقونهم عدداً ، واستماتوا فى ساحة الحرب بل مات أبطالهم جميعاً الواحد بعد الآخر ، وكان كل منهم يحمل راية المسلمين ، وقف عبد الله بن رواحة يقول وفى يده الراية :

أقسمتُ يا نفسُ لَتَنْزِلنَّهْ ... لتَنْزِلنَّ أو لتُكْرَهنَّهْ

إنْ أجْلَبَ الناسُ وشدّوا الرَّنَّهْ ... مالِى أراكِ تكرهينَ الجَنَّهْ

يا نَفْس إلاَّ تُقْتَلى تموتِى ... هذا حِمامُ الموتِ قد صُلِيتِ

وما تمنَّيْتِ فقد أُعْطِيتِ ... إن تَفعَلِى فِعْلَهما هُدِيتِ

ثم ظل يقاتل حتى قتل .

وفى يوم القادسية نسمع أبا محجن الثقفى يتغنى بحسن بلائه ويقول :

---

(١) النخيلة : مكان بالعراق قرب نهر البويب .

(٢) خفان : مأسدة مشهورة قرب الكوفة .

لقد عَلِمَتْ ثقيفٌ ، غيرفَخْرٍ ، بأَنَّا نحن أَكرمُها سيوفَا
وأَكثرهمْ دروعًا سابغاتٍ وأَصبرهم إذا كرهوا الوقوفَا
فإنْ أُحْبَسْ فذلكُمُ بلائِي وإن أُترَكْ أُذيقهُم الحتوفَا

وهكذا نسمع الشعر يملأ الأجواء متغنياً بانتشار الدين الجديد ، في لهجة حافلة بعزة النصر ، والإيمان الحي ، والشجاعة المقعدة على العقيدة الثابتة . وإن في ما وجه إلى الرسول (صلعم) من مدائح ، روائع فخرية حماسية تهز النفوس والقلوب هزًّا .

ومن ذلك قول النابغة الجعدي :

خليليَّ عُوجا ساعةً وتهجَّرا ونُوحَا على ما أَحدث الدَّهر أَو ذَرا
ولا تجزعا إن الحياة ذميمةٌ فخفًّا لروْعات الحوادث أَوْ قِرا
وإن جاءَ أَمرٌ لا تُطيقان دَفْعَه فلا تَجزعا ممَّا قَضى الله واصبرا
أَلم تَريا أَن الملامةَ نفعُها قليلٌ إذا ما الشيءُ ولَّى وأَدبرا
تَهيج البكاءَ والندامة ثم لا تغيِّرُ شيئاً غَيْرَ ما كان قُدِّرا
أَتيتُ رسول الله إذ جاءَ بالهدى وَيتْلو كتاباً كالمجرَّة نَيِّرا
أُقيمُ على التقوى وأَرْضَى بفعلها وكنتُ من النَّار المخوفَةِ أَحْذَرا

ومنها في الفخر :

وإنا لقومٌ ما تعود خيلنا — إذا ما التقينا — أَن تَحيدَ وتَنْفرا
ونُنكر يَوْمَ الرَّوع أَلوانَ خيلنا من الطَّعن حتى نَحْسِب الجونَ أَشقرا!

بلغنـــا السّماءَ مجدُنا وجُدُودُنا   وإنا لنرجو فوقَ ذلكَ مَظهرا

ولا خير فى حِلمٍ إذا لم تكن له   بوادِرُ تَحْمى صَفْوَه أن يُكدَّرا

ولا خير فى جَهْلٍ إذا لم يكن له   حليمٌ إذا ما أوْرَد الأمْر أصْدَرا

* * *

وإننا نستطيع أن نضيف إلى هذا الفخر الدينى ما نظمه الشعراء على ممر العصور من المدائح النبوية وما إلى ذلك ، من مثْل البردة للبوصيرى ونهج البردة لأحمد شوقى ، وإننا نلمس فى تلك القصائد من الحماسة الدينية الصادقة ومن الروعة الشعرية والبيانية ، ما يجعل لتلك القصائد محلاً مرموقاً فى عالم الأدب .

الفصل الرابع

الفخر الحماسي

فطر العربي على الحماسة كما فطر عليها كل إنسان ، وذلك أن حب الحياة حمل الناس على النزاع فى سبيل الحياة ، وإذا الأرض ميدان واسع لتنازع البقاء ، وإذا الناس اثنان : غاز ومغزو ؛ أو هم بالحرى تارة مغزوون وطوراً غازون . وهم فى كل حال جماعة جلاد وقتال ، يقوم فيما بينهم من يبوق لذلك القتال ، ويدعو إليه ، ويبث الحماسة فى صدور الأبطال ، أو يسجل المواقع بكلام منظوم هو الشعر الحماسي . وهذا الشعر الحماسي نشأ عند جميع الشعوب نشأة بدائية مقطعة الأوصال ، يرافق نبضات القلوب ، وغضبات السيوف ، ثم راح مع الأيام ، عند الشعوب المتقدمة فى سبيل المدنية والوعى ، يصور دامى الذكريات وروائع المشاهد ، ويتغنى بالبطولات القومية ، ويعلق أطرافها بأعمال بطل من الأبطال ، ويضخم المواقف ، ويرفعها إلى أجواء الخوارق ، فى قصص مملوء بالحياة ، وفى وصف رائع الألوان ، وهكذا كانت الملحمة .

ولأكثر أمم الأرض ملاحم شعرية سطرت فيها الأمجاد القومية ، وخلال العظمة التى ورثها الأبناء عن الآباء ؛ فلأمة اليونان إلياذة هوميروس وأوذيسته ، وفيهما إحياء الحرب الطروادية مضخمة ، ولأمة الرومان إلياذة فرجيليوس وفيها ذكر مغامرات البطل إينياس جد روموس ورومولوس ؛ ولأمة الهنود ملحمة الرامايانا للشاعر ڤالميكى فى ثمانية وأربعين ألف بيت من الشعر ، وفيها الشيء الكثير من تاريخ الهند القديم ؛ ولهم أيضاً ملحمة المهابهارتا فى نحو مائة ألف بيت من الشعر ، ولأمة الفرس شاهنامة الفردوسى وهى سفر تلك الأمة وسجل أعمال

الأكاسرة وأعمال أبطال فارس ، ولأمة الألمان ملحمة النيبيلونغاليد وهى من آثار القرن الثالث عشر للميلاد ، وقد دارت حول بطولات الفتى المغوار سيغفريد وحول مغامراته الغرامية ، ولأمة الفرنسين ملحمة رولان التى ضمت مجد فرنسة فى عصورها القديمة .

وهكذا كان لكل أمة من تغنى بأمجادها ، وهكذا كانت الملحمة قصة شعرية لأعمال بطولة خارقة . ولئن فات العرب أن ينشئوا ملحمة ، وأن يقوم فيما بينهم من يجمع شعرهم الحربى ويربط بين أجزائه ، وفى وحدة عمل قصصى ، وفى وحدة هدف وغاية ، ولئن حال دون ذلك ، عند العرب ، قلة انطلاقهم وراء التخيلات الميثولوجية والخوارق الغيبية ، وضعف صبرهم على الحديث الطويل والرواية التى تطلب جلداً وتحليلاً وإعمال فكر وسعة خيال ، وخروجاً عن حيز الذات والمنفعة القريبة المنال ، ولئن حال دون ذلك عندهم انصراف شعرائهم إلى استخدام الشعر للتعيش عن أقرب سبيل ، وإلى جعل الأدب فى خدمة البلاط والمناسبات ، فلم يفتهم أن يخوضوا المعارك بأقلامهم ، وأن يسردوا القصص الحربى ويصفوا مواقف القتال ، وأن يجعلوا أنفسهم على المسرح مفاخرين ، متوثبين ، منفعلين ، على غير سنة الملاحم التى تطلب من الشاعر أن يكون راوية يروى أعمال غيره . وأن يسير العمل من وراء الستار .

وهكذا ، إن حرم الأدب العربى الملحمة المشبهة لملاحم الأمم المشهورة ، فلم يحرم تلك الملحمة الكبرى من الشعر الحماسى ، إلا أن تلك الملحمة مقطعة الأوصال ، قد اشترك فى وضعها عدد لا يحصى من الشعراء ، وقد عمل على جمع شتاتها عدد من الأدباء من مثل أبى تمام والبحترى وغيرهما ، فى دواوين كبرى تورد القصيدة أو المقطوعة إلى جنب القصيدة أو المقطوعة ، من غير ما واصل إلا واصل الجوار والموضوع الواحد . ولو أتيح لتلك القصائد من يؤلف ويربط لكان للعرب من عنترة الفوارس ، وجساس بن مرة ، وكليب بن ربيعة ، والحارث

ابن ظالم، وغيرهم أشباه آشيل وأغا ممنون عند اليونان ، ورستم والأسفنديار عند الفرس ، ورولان عند الفرنسيين .

ولا سيما — على حدّ قول زكى المحاسنى — « وإنّ فى المعلقات الجاهلية العشر ، وفى سائر ما نظم الشعراء الجاهليون ، لمما يتنخل منه ملحمة عربية كبرى قيلت فى الجاهلية . لأن خواطر أصحابها الشعراء متقاربة ، بل تكاد تكون متحاذية ومتشابهة . وقد يضؤل الشبه بين كثير من خواطر الشعراء الجاهليين فتبدو صورهم الفنية متماثلة كل التماثل . فلدى طرفة بن عبد مقطوعات فى معان جاء بمثلها امرؤ القيس ، كما أن لديه أبياتاً هى ذاتها عند ضريعه تتغير قوافيها فحسب ، وإنّ فى وحدة معايشهم وطبيعة أرضهم المتشابهة ، وانبساط آفاق الرمل بين أعينهم ، وتظللهم تحت الخيام ، وعيشهم الراتب على المدر والحجر وفى الوبر ، لمما طبعهم جميعاً على غرار واحد ، فألف بين مثالات معانيهم وخواطرهم ، وضروب تصورهم ، مع اختلاف قليل فى أساليبهم . على أن البصير فى أساليب المعلقات العشر ، واجد فيها شبهاً فى النسج والمعنى ، مما يساعد على الأخذ بهذه النظرية التى أقول فيها باحتمال التأليف لملحمة عربية جاهلية . . . تمثل فروسية الجاهلية ، وتذكر حروبها وأيامها بالتسلسل والترتيب . . . فالعرب فى جاهليتهم وإسلامهم مواقف قلّ مثيلها عند الأمم المحاربة القديمة ، وفى تشمير الجاهليين للحرب ليل نهار ، وغاراتهم الهاجمة التى ما حفلوا معها الموت ، ما لا يقل عن مثيله عند غيرهم من الأمم التى عاصرتهم أو تقدمتهم فى الزمن . . . ولن يكون للعرب ملحمة واحدة مقصورة على الحروب الجاهلية ، فإن تاريخهم الحربىّ الذى نبه إليهم الأمم المجاورة وأخافها منهم وبسط سلطانهم على القلوب ، قد بدأ منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان للعرب قصة حرب تبدأ من غزوات الرسول ، ثم تنحدر إلى حروب الفتوح فى ديار فارس ، وأرض الروم ، وسائر الأقطار التى بلغ إليها العرب بسيوفهم حتى تبلغ شتات شملهم وتوزع سلطانهم فى أواخر العصور » .

الحماسة فى الجاهلية

(أ) دواعى الحماسة الجاهلية :

للشعر الحماسى فى الجاهلية دواع كثيرة ، منها أن البدوى وليد الصحراء يعيش فى أكنافها ويواجه مخاطرها ، ويتقلب بين قسوة السماء ولهيب الرمضاء ، أمل عيشه فى أنعام يضطرب فى الأرض من أجلها ، ويتوقع الأمطار ليروى عطشها ، فيرتحل من مكان إلى مكان فى مجاهل يرتعش كلؤها فى سراب خداع ، حتى إذا زاحمه غريب على الماء والكلأ هاجمه ؛ وإذا هنالك كر وفر ؛ وإذا هنالك جلاد وصراع ، ودماء تسيل معها الأرواح ! وإذا هنالك طلب الثأر وإعداد العدة للانتقام ! وإذا هنالك تآلف وتحالف ، وتناد للحرب بين البطون والقبائل ؛ وإذا هنالك أخيراً صولات وجولات يتصادم فيها الأبطال ، وتتعانق فيها السيوف والنصال ، وتتعالى فيها أصوات الرجال وهمهمات الخيول والإبل ، وتنطلق ألسنة الشعراء مدوية ، معددة للمكارم والمفاخر .

ومن دواعى الشعر الحماسى أن البدوى شديد الحفاظ على الشرف والجار ، فإن تعدى عليهما أحد ، أوقد نار الحرب والقتال ، وأذكى بذلك القرائح ، ففاض الشعر فى أسلوب ملحمى هدار .

وهكذا كان الداعى إلى الحماسة كل ما كان داعياً إلى الحرب ، وهكذا كانت كل حرب وكل غزاة ، وكل تعد وكل مناوأة ، سبباً من أسباب الفيض الملحمى الذى رافق تاريخ العرب فى مختلف أطواره . وهكذا أخيراً كانت أيام العرب فى الجاهلية محور شعرهم ، ومدار أقوالهم . ولتلك الأيام تاريخ طويل ، وهى ترجع إلى أيام العرب والفرس ، وأيام القحطانية فيما بينهم ، وأيام القحطانيين

والعدنانيين ، وأيام ربيعة فيما بينها ، وأيام ربيعة وتميم ، وأيام قيس فيما بينها ، وأيام قيس وكنانة ، وأيام قيس وتميم ، وأيام ضبة وغيرهم .

أما أيام العرب والفرس فأشهرها يوم ذى قار وهو لبكر على العجم ، وقد التقى جيش الأكاسرة بجيش العرب فى بطحاء ذى قار ، وذو قار ماء لبكر قريب من الكوفة ؛ وكان جيش الفرس مؤلفاً من ثلاثة آلاف عربى ؛ ومن ألف من الأساورة على رأسهم الهامرز ، وألف آخر من الأساورة على رأسهم خنابزين ، ومن عدد كبير من الحلفاء والموالين ؛ وكان جيش العرب مؤلفاً من بنى عجل فى الميمنة وعليهم حنظلة بن ثعلبة ، ومن بنى شيبان فى الميسرة وعليهم بكر بن يزيد ابن مسهر ، ومن أفناء بكر فى القلب وعليهم هانئ بن مسعود . وقد دارت الدائرة على الفرس ، وقد اتبعتهم بكر يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم ، حتى قضوا على من قضوا وشردوا من شردوا . ومن الأناشيد الحربية والأراجيز الحماسية التى تناشدها العرب فى ذلك اليوم وحض بها بعضهم بعضاً على القتال ، ما قالته امرأة من عجل من بنى شيبان :

إنْ تَهْزِموا نُعانِقْ ... ونَفْرِشِ النَّمـــارِقْ[1]
أو تُهزَموا نُفارِق ... فِراقَ غيرِ وامِقْ

إلى غير ذلك من الشعر الذى ينطلق دفعاً دفعاً ، ويصور بلفظه وموسيقاه ، مواقف الشدة وحركات الهجوم ، وومضات الأسنة ، والتحام الأبطال بالأبطال ، وانفجارات الصدور والنفوس . وهذه المقاطع الشعرية أشبه شىء بمقاطع الإلياذة ، فى وصف هجوم الطراودة والتحام القتال بينهم وبين الإغريق .

وأما أيام القحطانيين فيما بينهم فأشهرها يوم حليمة للحارث الأعرج بن

---

(١) النمارق ج نمرقة وهى الوسادة الصغيرة أو الطنفسة فوق الرحل .

جبلة، ملك العرب بالشام ، على المنذر بن المنذر بن ماء السماء، ملك العرب بالحيرة.

وأما أيام القحطانيين والعدنانيين فمن أشهرها يوم حجر لبنى أسد على حجر والد امرئ القيس الشاعر المشهور ، وأخبار ذلك اليوم معروفة متداولة فى كتب الأدب ، لما للملك الضليل من أهمية فى أدب الجاهلية .

وأما أيام ربيعة فيما بينهم فأشهرها حرب البسوس التى دارت بين بكر وتغلب ابنى وائل ، وقد دامت أربعين سنة . وإن فى حرب البسوس من المواقف ، وإن فيها من الشعر ما هو أشبه شىء بمواقف إلياذة هوميروس وشعرها . وحرب البسوس — على حد قول سليمان البستانى فى مقدمة الإلياذة — « حرب تناقل العرب أخبارها وتناشدوا شعرها . على ممر القرون حتى أيامنا هذه ، وصاغوها بقوالب شتى لا يصلح قالب منها لصوغ الملاحم التامة كالإلياذة . ومع هذا فإن جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم أقرب نسبة إلى الشعر القصصى منه إلى الموسيقى ، فكل قصيدة منها قطعة من ملحمة . ولكن تلك القطع غير ملتئمة لفقدان اللحمة بينها ، فهى كالحجارة المنحوتة قد أحكمت صنعتها ، وبقيت ملقاة فى أرضها غير مرصوصة بالبناء . ثم إذا نظرت إلى أشهر الرجال والنساء فيها ، رأيتهم جميعهم شعراء ، فكليب يقول الشعر ومثله زوجته جليلة ، وأخوه مهلهل . وكذلك مرة شاعر ، وابنه جساس شاعر ، وكل ذى شأن فى القصة من غريب وقريب شاعر ، كالحارث بن عباد وجحدر بن ضبيعة » .

ومن الأناشيد الحربية والقصائد الملحمية التى قيلت فى حرب البسوس قول مرّة مخاطباً ابنه جساس :

فإنْ تكُ قد جنيتَ علىَّ حرباً   تغصُّ الشيخَ بالماء القراحِ

جمعت بها يديك على كليبٍ   فلا وَكِلٌ ولا رثُّ السِّلاحِ [1]

---

(١) الوكل : العاجز .

ولكنّى إلى العَلّاتِ أجرى إلى الموتِ المحيطِ مع الصّبَاحِ [١]

وإنّى حين تَشْتَجِر العَوالى أُعِيد الرُّمحَ فى إثْرِ الجِرَاحِ [٢]

شديد البأسِ ليس بذى عَياءٍ ولكنّى أبوءُ إلى الفَلاحِ

سأَلبَس ثَوْبَها وأَذُبُّ عنها بأَطْرَافِ العوالى والصِّفَاحِ [٣]

فما يَبْقَى لعـــزّتهِ ذليل فَيَمنَعه من القَدَرِ المتَاحِ

فإنى قد طربْت وهاجَ شوقى طرادُ الخَيْلِ عارضَة الرّماحِ

وأَجمَل من حياةِ الذُّلِّ موتٌ وبعضُ العارِ لا يمحوه ماحِ

ومن ذلك أن الحارث بن عباد أرسل إلى المهلهل وقال : إن كنت قتلت بجيراً بكليب ، وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم . فقد طابت نفسى بذلك . فأرسل إليه المهلهل: إنما قتلته بشسع نعل كليب . فغضب الحارث ودعا بفرسه — وكانت تسمى النعامة — فجز ناصيتها وهلب ذنبها [٤]؛ ثم قال قصيدة منها:

كلُّ شىءٍ مصيرُه للزّوالِ غيرَ ربّى وصالح الأَعْمالِ

وترى النّاسَ ينظرونَ جميعاً ليسَ فيهم لذاكَ بعضُ احتيالِ

قُلْ لِأُمِّ الأَغَرِّ تبكى بُجَيْرًا ما أتى الماءُ من رؤوسِ الجِبَالِ

لهفَ نَفْسِى على بُجَيْرٍ إذا ما جالتِ الخَيْلُ يومَ حربٍ عُضالِ

وتســاقى الكُمَاةُ سُمًّا نقيعاً وبَدا البيضُ من قِبابِ الحِجالِ

---

(١) بنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شتى .

(٢) تشتجر : تتداخل .

(٣) الصفاح : السيوف العراض .

(٤) هلب ذنبها : نتفه .

وسَمِعَتْ كلُّ حرَّةِ الوَجْه تدعو ... يا لبَكْرٍ ! غَرَّاء كالتِّمْثالِ

يا بُجَيْرَ الخيراتِ لاصلْحَ حَتى ... نملأ البيدَ من رؤوس الرّجالِ

وتقرَّ العيون بَعْدَ بُكاهَا ... حينَ تسقى الدِّما صدورَ العَوالِى

أَصْبَحَت وائلٌ تعجُّ من الحر ... بِ عجيجَ الجِمَالِ بالأَثقالِ

لا بُجَيْرٌ أَغنى قتيلاً ولا رهـ ... ط. كُليبٍ تزَاجروا عن ضلالِ

لم أَكُنْ من جُنَاتِها - عَلِم الله - ... وإِنى بحرِّها اليومَ صَالِ

قد تَجنبْتُ وائلاً كى يُفيقوا ... فأَتتْ تَغْلِبٌ علىَّ اعتزالى

وأَشـــابوا ذُؤابتى ببُجَيْرٍ ... قتلوه ظُلْماً بغَيْرِ قتالِ

قتَلوه بِشِسْع نَعْلِ كلَيْبٍ ... إِنَّ قَتْلَ الكريم بالشِّسْع غالِ

يا بَنِى تَغْلبٍ خذوا الحَذْرَ إِنَّا ... قد شربْنا بكاسٍ موتٍ زُلالِ

يا بنِى تَغْلبٍ قتَلْتُم قتيلًا ... ما سمِعْنَا بمثلِه فى الخَوالى

قرِّبا مَرْبِطَ النَّعامة منِّى ... لقِحَت حرب وائلٍ عن حيالِ[1]

قرِّبا مربط النَّعامة منِّى ... ليسَ قَوْلى يُرَادُ لكن فَعَالِى

قرِّبا مربطَ النَّعامةِ منِّى ... جَدَّ نَوْحُ النساءِ بالإِعْوَالِ

قرِّبا مَرْبِط النَّعامةِ منِّى ... شابَ رأْسِى وأَنْكَرتْنِى العوالِى

قرِّبا مربطَ النَّعامةِ مِنِّى ... لِلسُّرى والغُدُوِّ والآصَالِ

قرِّبا مربط النَّعامةِ منِّى ... طالَ ليلى على الليالى الطِّوالِ

قرِّبا مربط النعامة منِّى ... لاعتناق الأَبطال بالأَبْطَالِ

---

(١) عن حيال : أى أن حرب وائل هاجت بعد سكون .

قرِّبا مَرْبِطَ النعامةِ منّى ... وٱعْدِلا عَنْ مقالَةِ الجُهَّالِ

قرِّبا مربطَ النعامةِ منّى ... ليس قَلبي عن القِتَال بِسَالِ

قرِّبا مربطَ النَّعامة منّى ... لَمّا هبَّ رِيحُ ذَيْلِ الشَّمالِ

قَرِّبا مربطَ النعامةِ منّى ... لِبُجَيْرٍ مُفَكِّكِ الأَغْلالِ

قرِّبا مرْبطَ النعامةِ منّى ... لكريمٍ متوَّجٍ بالجمال

قرِّبا مرْبط النعامةِ منّى ... لا نَبيعُ الرِّجالَ بَيْعَ النِّعَالِ

قرِّبا مربِطَ النعامة منّى ... لِبُجَيْرٍ فداه عمّى وخالى

قرِّباها لحىّ تَغْلِبَ شُوساً ... لاعتناقِ الكُمَاةِ يَوْمَ القِتَالِ (١)

قرِّباها وقرِّبا لَأْمتى دِرْ ... عًا دِلَاصاً تردُّ حَدَّ النِّبالِ (٢)

قرِّباها بِمُرْهَفَاتٍ حِدَادٍ ... لِقِرَاعِ الأَبطالِ يَوْمَ النزَالِ

سائِلُوا كِنْدَةَ الكرامَ وبَكْرًا ... وٱسْأَلُوا مَذْحجاً وحَىَّ هِلَالِ

إِذْ أَتَوْنَا بعَسْكَرٍ ذى زُهاءٍ ... مُكْفَهِرِّ الأَذى شَديدِ المَصَالِ (٣)

فَقَرَيْنَاهُ حينَ رامَ قِرَانَا ... كل ماضى الذبابِ عضبِ الصِّقالِ (٤)

وهكذا ترى أن مثل هذا الشعر ، وإن كان بادى النحل فى بعض أجزائه ، هوشعر الحرب بكل ما فى الكلمة من معنى ، هو شعر الثورة الدموية ، والغضبة البدوية الكريمة ، هو الانتصار للشرف والإباء ، وهو الحلم فى فورة البأس ،

---

(١) الشوس ج أشوس وهو الجرىء .

(٢) الدرع الدلاص : اللينة الملساء .

(٣) ذى زهاء : ذى عدد كبير .

(٤) ذباب السيف : حده .

والبأس فى انتفاضة الحلم . وما أشبه هذا المشهد بمشهد « دون دياغ » فى رواية السيد لكورنيل المسرحى الفرنسى الشهير ! وما أروع هذا البحر الشعرى فى مثل هذا الموقف ! وما أروع الألفاظ المتدافعة ، المكرورة فى تدافعها الحربى ، الموقعة على نبضات القلب ، والتى تحمل فى طياتها هدير الهاوية ، وجلبة الموت العميقة ! . . .

وأما أيام ربيعة وتميم فمن أشهرها يوم ذى طلوح لبنى يربوع من تميم على بكر من ربيعة .

وأشهر أيام قيس فيما بينها يوم « داحس والغبراء » وقد قيل فيها شعر كثير وهى حرب السباق بين عبس وذبيان ، وكانت الحرب بينهما سجالاً وانتهت بصلح .

وقد اشتملت أيام المريقب ، وذى حساء ، واليعمرية ، والهباءة ، وفروق ، وقطن . ولهذه الحرب روايات كثيرة فى كتب الأدب منها أن الورْد العبسىّ زار يوماً حُذيفة بن بدر الذبيانى ، فعرض عليه حذيفة خيله ، فقال : ما أرى فيها جواداً مبُرا . فقال له حُذيفة : فعند من الجواد المبرّ ؟ فقال : عند قيس ابن زهير . فقال له : هل لك أن تراهننى عليه ؟ قال : نعم ! قد فعلت . فراهنه على ذكر من خيله وأنثى . ثم إنّ ورداً العبسى أتى قيس بن زهير وقال : إنى قد راهنتُ على فرسين من خيلك ذكر وأنثى ، وأوجبت الرهان ، فقال : ما أبالى من راهنت غير حُذيفة . فقال : ما راهنت غيره . فقال قيس ! إنك — ما علمت — لأنكد .

ثم ركب قيس حتى أتى حُذيفة فوقف عليه ، فقال له حذيفة : ما غدا بك ؟ فقال : غدوتُ لأواضعك الرهان . فقال حذيفة : بل غدوت لتغلقه[1] . فقال قيس : ما أردت ذلك . فأبى حذيفة إلاّ الرهان . فقال قيس : أحيرك

---

(١) أغلق الرهان : أوجبه .

ثلاث خلال ، فإن بدأت واخترت قبلى ، فلى خلتان ولك الأولى . وإن بدأت فاخترت قبلك فلك خلتان ولى الأولى . قال حذيفة : فابدأ . قال قيس : الغاية من مئة غلوة[١] . قال حذيفة : فالمضمار[٢] أربعون ليلة ، والمجرى من ذات الإصاد[٣] .

ففعلا ووضعا السبق على يدى أحد بنى ثعلبة بن مسعد . ثم ضمروا الخيل ، فلما فرغوا استقبل الذى ذرع الغاية بينهما من ذات الإصاد . فانتهى الذرع إلى مكان ليس له اسم . فقادوا الخيل إلى الغاية وجعلوا السابق الذى يرد ذات الإصاد ، وأجرى قيس داحساً والغبراء ، وحذيفة الخطار والحنفاء . وملأوا البركة ماء ، وجعلوا السابق أوّل الخيل يكرع فيها . وأقام حذيفة رجلاً من بنى أسد — وبنو أسد أحلاف ذبيان — فى الطريق ، وأمره أن يلقى داحساً فى الطريق ، فإن جاء سابقاً ردّ وجهه عن الغاية . فلما أرسلت الخيل سبقها داحس سبقاً بيناً والناس ينظرون ، فلما هبط داحس فى الوادى عارضه الأسدى فلطم وجهه فألقاه فى الماء ، فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلاّ وقد فاتته الخيل . وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ . ثم عاد إلى الطريق ، واجتمع مع فرسىْ حُذيفة ، ثم سقطت الحنفاء ، وبقى الخطار والغبراء . ثم إن الغبراء جاءت سابقةً ، وتبعها الخطار ، ثم الحنفاء ، ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله ، وأخبر الغلام قيساً بما صُنع بفرسه . فطالب قيس بالسبق — وكان عشرين من الإبل — فأبت بنو فزارة أن يعطوهم شيئاً . فقالت

---

(١) الغلوة : الرمية بالنشابة .

(٢) المضمار : وقت للأيام التى تضمر فيها الخيل للسباق أو للركض أو للعدو ؛ وتضميرها أن تشد عليها سروجها ، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها ، ويشتد لحمها ، ويحمل عليها غلمان خفاف يجرونها ، لا يعنفون بها ، فإذا فعل بها ذلك أمن عليها البهر الشديد عند حضرها ، ولم يقطعها الشد .

(٣) ذات الأصاد : نقيرة فى حجر يجتمع فيها الماء ، وهى فى ديار بنى عبس .

بنو عبس : أعطونا بعض سبقنا . فأبوا . فقالوا : أعطونا جزوراً ننحرها ونطعمها أهل الماء ، فإنا نكره القالة فى العرب . فقال رجل من فزارة : مائة جزور وجزور واحدة سواء ، والله ما كنا لنقر لكم بالسبق علينا ، ولم نسبق . فكان ذلك سبب دماء فيما بين القبيلتين ، ثم سبب حرب ضروس أبلى فيها عنترة العبسى بلاء حسناً ، وقد انتهت بصلح قام على يدى الحارث بن عوف وهرم ابن سنان ، وقد مدحهما زهير بن أبى سلمى فى معلقته التى أتى فيها على ذكر تلك الحرب وويلاتها[١] .

وأما أيام قيس وكنانة فمن أشهرها يوم الكديد لبنى سليم (بطن من قيس عيلان) على كنانة . والكديد موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة . ومن أبطال ذلك اليوم الشاعر المشهور دريد بن الصمة . وأما أيام قيس وتميم فمن أشهرها يوم رحرحان لعامر على تميم ، ورحرحان اسم جبل قريب من عكاظ ، ثم يوم شعب جبلة بنجد لعامر على ذبيان وتميم . وقد قال أبو عبيدة معمر ابن المثنى : « يوم جبلة أعظم أيام العرب » وذلك لما اتخذ فى هذا اليوم من الحنكة والحكمة ، وسديد الرأى والحيلة وحسن التنفيذ . وقد وصف المعقر البارقى — وكان قد شهد الوقيعة — ذلك اليوم المشهود ، وما أتى به الأبطال من جليل الأعمال ، فى أبيات منها :

ضَرَبْنَا جميلَ البَيْضِ فى غمرِ لجّةٍ ... فلَمْ يَنْجُ فى النَّاجِينَ مِنْهُمْ مُفَاخِرُ

هوى زهْدِمٌ تحتَ العجاجِ لعامرٍ ... كما انْقضَّ بازٍ أَقْتَمُ الريشِ كاسِرُ

يُفَرِّج عنَّا كُلَّ ثَغْرٍ نخافُه ... مُشِيحٌ كسِرْحانِ القصيمة ضامِرُ

وكُلّ طَمُوحٍ فى العِنانِ كأنَّها ... إذا اغتَمَسَت فى الماءِ فتخاءُ طَائِرُ

---

(١) عن كتاب « أيام العرب فى الجاهلية » .

تلك أيام العرب ، وقد كانت من أشد دواعي الشعر الحماسي ، بل كانت ينبوع الملحمة الجاهلية الكبرى ، ومستوحى الفخر العربي فى قديم عصوره . وقد قامت فيها النساء إلى جنب الرجال يشاركنهم أعمال بطولتهم ، ويقفن فى مؤخرة الجيوش يصفقن بالدفوف ، وينشدن الأهازيج ، وينظمن أحياناً الشعر فى وصف المعارك ، واشتهر منهن كثيرات من مثل « الهيفاء القضاعية » القائلة :

الخيلُ تَعْلَمُ يومَ الرَّوْعِ إنْ هُزِمت　　أنَّ ابنَ عمروٍ لدى الهيجاءِ يَحْميهَا

(ب) موضوعات الحماسة الجاهلية :

دار الشعر الحماسي فى الجاهلية حول وصف المعارك ، ووصف أعمال البطولة ، ثم وصف الخيول والإبل ، وأدوات الحرب وما إلى ذلك . وقد برع الجاهليون فى وصف المعارك وتصويرها حية نابضة مملوءة بالهول ، كما برعوا فى وصف أدواتها . فالميادين فسيحة الأرجاء ، وأحياء العرب فى لغط وضوضاء ، يقوم فيها المنادون ينادون إلى الحرب ، ويدعون إلى القتال ، لأن الشرف قد ديس ، أو لأن الدم المهراق يطلب الثأر ، أو لأن المراعي قد اغتصبت ، أو لأن المواشي قد سيقت ، أو لأن فرس فلان قد سبقت فرس بعض أبناء القبيلة ، أو لأسباب أخرى ألحقت للقبيلة عاراً ، ونشرت فى الحي ذلا وصغاراً . يا للعار ! يا لبني فلان ! الحرب ! الحرب ! . . . وها هي ذي القبيلة كلها فى غضب وثورة ، فالنساء فى زغردة ، والأطفال فى دمدمة ، والرجال فى همهمة ، والصدور فى انفجار ، والخيول فى صهيل ، تضرب الأرض بالحوافر ، وترفع الرؤوس فى عنفوان ، والإبل فى هدير وعجيج ، والهوادج قباب تلو قباب ، والحسان فوق الهوادج بدور ، وأناشيد فخر وعزة قومية ، والفرسان على الصهوات نسور وعقبان ، والهندوانية بتارة تحمل فى شفارها الموت والدمار ، والعوالي غابات ممتدة فوق الرؤوس ، تتلوى فى شغف إلى امتصاص الأرواح ، والآمال فوق

الرماح أعلام خفاقة . القبيلة جماهير جماهير ، والأحلاف جماهير جماهير ، والمقاتلة جماهير جماهير ، والهول والموت جماهير جماهير ، يبدو رئيس القوم على فرس أخف من النسيم ، فيذهب ويجيء ، ويتفقد ويستعرض ، ثم ينطلق إلى ساحة الوغى ، وإذا الفرسان وراءه كتائب كتائب ، وإذا صدى الحوافر ، وصليل الأسلحة ، وإذا صفعات الأخفاف زمزمات تشق الغبار وتملأ الأجواء ، يلتقى الجيشان فيتصاولان ويتجاولان فى كر وفر ، وإذا الرماح فى الصدور والنحور ، والسيوف فى الأعناق والرؤوس ، والدماء تسيل على الرمال صباغاً قرمزيًّا ، وتتناثر على صدور الخيول فتحمحم ، وعلى وجوه الأبطال فتزيدهم شراسة وهياجاً ، وإذا السماء اربداد وقساطل ، تشقها الارتجازات والزغردات شقًّا . ثم ينجلى الموقف عن عدو مهزوم ، وعن شرف مصون ، فيعود رجال الحرب زرافات زرافات ، وإذا القبيلة وأحلافها فى عيد ، ثم فى تأهب لعراك جديد .

وهكذا كان الجاهليون يصفون الأبطال بالشدة والشجاعة والبأس ، ويصفونهم بقوة الساعد ، وقوة الشكيمة ، والعناد فى الصدام ، ورجاحة العقل فى الكر والفر ، والحيلة فى مواقف الشدة ، والعفة فى تقاسم الغنائم ، والبديهة فى المآزق الضيقة ، والكرم فى كل حال . وكانوا يصفون الخيول بالسرعة والخفة وشدة الانقضاض ، ويشبهونها بالعقبان والظباء والنعام والريح ، ويستحسنون فيها الضمور ، والملاسة ، ومتانة الساقين ، وقوة الجنبين ، وطول الذنب ، واستقامة العسيب وما إلى ذلك مما يرجع إلى النشاط والسرعة . وكانوا يصفون عدة الحرب بما كان يصفها به غيرهم من الشعوب القديمة ، فيذكرون للسيف بلاءه فى حز الرقاب ، وقصم الظهور ، وقطع الدروع ، وذكروا للرمح التماع سنانه ، وأنه أزرق كأنياب الغول ، يخترق الصدور ويدمى النحور .

(حـ) ميزات الحماسة الجاهلية :

قال الدكتور زكى المحاسنى : « طول مشاهدة العرب للمعارك أكسب شعراءهم دقة وصفها وحسن تصويرها . وهل كانت المعارك فى حياة العرب إلا مناط عزهم ومدار فخرهم، يردونها ولا وجه أمامهم سوى الموت . لقد رخص كل شيء لديهم من حطام الدنيا ، ولم يكن من حطامها بين أيديهم سوى قليل . وغلا لديهم كل ما رافق المروءة والشهامة ، فكانت شجاعتهم أدعى لهم إلى الحرب . على أنهم لم يطرحوا سداد الرأى ، وإنما كانوا فى حروبهم يقلبون أوجهه ليصلوا إلى أيها الأسد ، ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفاً مطولاً يأخذ بالكلام من أوائله حتى ينتهى إلى أواخره كما تدعو الحوادث ، فليس لديهم قصائد تمسك بأوائلها حتى تبلغ نهايتها ، فتريك صورة معركة منذ بداءة الوقعة إلى ختامها ، وإنما هى فترات شعر فى لمحات وصف مقتضبة متجزئة ، يتبين فيها الروح العربى البيانى الذى انطوى ، منذ كان ، على الاختصار فى سرد الصور ، أو الزهد فى التقصى ، ونحن إذا وجدنا منها مطولات فى موضوع الحرب ووصف المعارك ، فإنا لا نجد فيها وحدة متناسقة فى الموصوفات المتشابهة . ولقد يتاح لنا بعد عصر الجاهلية أن نلم بقصائد كاملة ، يصف شعراؤها المعارك التى شهدوها أو قيلت لهم ، ولكنها قليلة ، وسبب ذلك حب الانطلاق من قيد المعانى والانفلات من استقصائها ، لضيق القافية الراتبة واتساع المعانى المتوالدة ، إذ كان يؤثر الشاعر العربى الخروج من موضوع إلى آخر ، ومن صورة لم يكمل وصفها إلى غيرها من الصور . . . ولقد أحاط شعراء الجاهلية بأوصاف السلاح وعدة الحرب بما لم تحط به أمة من أمم الحرب . فحذقوا الكلام عليها ، وأجالوا البيان فى وصف آلاتها ، وأكثروا من العناية بتصورها وتصويرها ، حتى ألموا بدقائقها وأشكالها . وكان هذا الشعر الواصف للعدة والسلاح شغل شعراء العرب الشاغل ، ودأبهم فى

استنباط التشابيه ، وتوليد أفانينها واستقصاء روائعها ، حتى صار ما قالوه فى أوصاف السلاح وعدة القتال تراثاً أدبياً فى شعرنا العربى نكاثر فيه آداب الشعوب . . .

وإننا إذا تتبعنا ألفاظ لغة العرب وتقصينا جملها وتراكيبها ، واستقرأنا تعابيرها فى المجاز والاستعارة ، وسائر فنون البلاغة — كما عرفت على رسلها فى الجاهليه قبل أن تستولى عليها الكلفة فى تتابع العصور الإسلامية — وجدنا أن لغة العرب لغة حرب وضرب ، وطعان ونزال ، فى أروع بيانها وأبرع تشابيهها[1] » .

(د) نماذج من شعراء الحماسة الجاهلية :

إن من استقرى الشعر الجاهلى وجد أن للحماسة فيه محلاً واسعاً جداً ، وشعر أن الحماسة ملء الأفواه والأسماع ، وذلك أن الشعراء لذلك العهد كانوا ينهضون ، كسائر الناس ، بعبء القتال ، وقد عدوه جزءاً من حياتهم ، وبات من العار لديهم أن يموت المرء حتف أنفه ، كما بات من غذائهم اليومى أن يتحدثوا عن القتال ، وأن يصفوا المعارك ، وأن يتفاخروا بالأيام . وإنه ليطول بنا المجال لو أردنا ذكر أسماء شعراء الحماسة ، فكيف بنا لو أردنا الكلام على شعرهم ، ولذلك سنقتصر على بعضهم ، وفى ذكر القليل غنى عن التفصيل والتطويل.

الفند الزمانى :

كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، وقد شهد حرب بكر وتغلب وله من العمر نحو مائة سنة . وإليك أبياتاً من قصيدة قالها فى حرب البسوس . وذلك أن بكر بن وائل بعثوا إلى بنى حنيفة فى حرب البسوس يستنصرونهم ، فأمدوهم به وبقومه بنى زمان وعدادهم فى بنى حنيفة ، فقال :

(١) شعر الحرب فى أدب العرب ، ص ٢٧ ، ٣٢ .

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذُهْلٍ وقُلْنا القَوْمُ إِخْوانُ
عسى الأَيَّامُ أن يرجِعْ نَ قَوْماً كالَّذِي كانوا
فلمَّا صرَّحَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهْو عرْيانُ
ولَمْ يَبْقَ سِوى العُدْ وَانِ دنَّاهم كما دانوا
مَشَيْنا مِشْيَةَ اللَّيْ ثِ غَدَا ، والليثُ غَضْبانُ
بِضَرْبٍ فيه توهِينٌ وتَخْضِيعٌ وإِقْرَانُ
وطَعْنٍ كفم الزِّقِّ غذَا والزِّقُّ ملآنُ
وبعْضُ الحِلْمِ عِندَ الجهْلِ للذِّلّةِ إِذعانُ
وفى الشَّر نَجَاةٌ حـ ينَ لا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ

هذا شيخ جاهلى ، قد تقلبت عليه الأيام بحلوها ومرها ، ودارت عليه دوائر الزمن ، وجال فى الحروب جولات وجولات ، وكان السيف لساعده نصيراً ، وكان الرمح لعزمه ظهيراً ؛ وقد دعى للحرب وهو فى شيخوخته فلبى الدعوة لأنّ الشر قد صرح ، ومشى فى قومه مشية الليث الجائع الغضبان ، ونظم فى ذلك شعراً حربيًّا يحمل فى وزنه وقافيته صدى الهجوم الصاعق ، ويحمل فى ألفاظه حكمة الشيخوخة ، وصرامة البطولة ، وعنفوان الجاهلية .

الحصين المرى :

والحصين بن الحمام المرّىّ شاعر جاهلى وفارس مذكور يعد من أوفياء العرب . ومما يروى من أخباره أنه كان ناس من بنى قضاعة يقال لهم بنو سلامان ابن سعد حلفاء لبنى صرمة بن مرّة ونزولاً فيهم ، وكان بنو حميس بن عامر حلفاء لبنى سهم بن مرّة ، وكان فى بنى صرمة يهودىّ من أهل تيماء يقال له جهينة ، وكان فى بنى سهم يهودىّ من أهل وادى القرى يتاجر فى الخمر ، وكان بنو جوشن

أهل بيت من عبد الله بن غطفان جيراناً لبنى صرمة ، وكان يُتشاءم بهم ، ففقدوا منهم رجلاً ، يُقال له حُصين كان يقطع الطريق وحده ، فكانت أخته وإخوته يسألون الناس عنه وينشدونه فى كل مجلس وموسم ! فجلس ذات يوم أخ لذلك المفقود فى بيت ذلك اليهودىّ المجاور لبنى سهم يبتاع خمراً ، إذ مرّت أخت المفقود تسأل عن أخيها ، فقال لليهودىّ : نشدتُك الله ودينك هل تعلم لأخى علماً ؟ فقال : لا ودينى لا أعلم . فلما مضى تمثل ذلك اليهودىّ :

لعمرك ماضلت ضلال ابن جوشن حصاة بليل ألقيت وسط جندل

وأراد أن الحصاة يمكن أن ترجع وأن هذا لا يرجع أبداً . فلما سمع أخوه ذلك تركه حتى إذا أمسى الليل قتله . فأتى الحصين وقيل له إن جارك اليهودىّ قتله أبو جوشن جار بنى صرمة . فقال : اقتلوا اليهودىّ الذى فى جوار بنى صرمة فأتوه فقتلوه . فوقع بذلك الشر بينهم وقاتلهم الحصين وهزمهم ، وكف يده بعد ما أكثر فيهم القتل . وأبى بنو سلامان أن يكفوا عن القوم حتى أثخنوا فيهم وأجلبت بنو ذبيان وبنو محارب بن خصفة على بنى سهم مع بنى صرمة . فأقاموا على الحرب فظفر بهم الحصين وهزمهم وقتل منهم ، وقال هذه الأبيات :

فَقُلْتُ لَهُمْ يا آلَ ذبيانَ مالَكُمْ تَفَاقَدْتُمُ ، لا تُقدِمونَ مُقدَّمَا (١)

مَوَالِيكُمُ مَوْلَى الوِلَادَةِ مِنهُمُ ومَوْلَى اليمينِ حابِسٌ قد تُقُسِّمَا (٢)

وقُلْتُ تَبَيَّنْ هل تَرَى بَيْنَ خارِجٍ ونَهْيِ الأكُفِّ صارخاً غَيْرَ أَعْجَمَا (٣)

(١) تفاقدتم : جملة اعتراضية ، وهى دعاء عليهم بأن يفقد بعضهم بعضاً . مقدماً : تقدماً أى إقداماً .

(٢) المولى يطلق على معان كثيرة ، وقسم الشاعر فى هذا البيت الموالى إلى بنى عم وهم الذين سماهم مولى الولادة ، وإلى حليف وهو من انضم إليك فعز بعزك وهو الذى سماه مولى اليمين لأنه يقسم له عند الانضمام . . يقول : تداركوا الذين ينتسبون بولاء النسب وولاء الحلف فكل منهم ذو حبس على الشر متقسم الحال مغار عليه .

(٣) خارج : ماء لبنى عبس . نهى الأكف : موضع . الصارخ : المستغيث . الأعجم : الذى لا يفصح .

مِنَ الصُّبْحِ حتى تَغْرُبَ الشمسُ لا ترى مِنَ الخَيْلِ إلّا خارجيًّا مُسَوَّمَا (١)

عَلَيْهِنَّ فِتيانٌ كَساهُمْ مُحرِّقٌ وكان إذا يَكْسُو أجادَ وأكرَمَا (٢)

صفائحَ بُصْرى أَخْلَصَتْها قيونُها ومطَّرِدًا من نَسْجِ داود مُبْهمًا (٣)

ولَمَّا رأَيْنا الصَّبْرَ قد حِيلَ دونَهُ وإن كان يومًا ذا كواكبَ مُظْلِمَا (٤)

صَبَرْنا وكان الصَّبْرُ مِنَّا سجيَّةً بأَسْيافِنا يقطَعْنَ كفًّا ومِعْصَمَا

نُفَلِّقُ هاماً مِن رجالٍ أعزَّةٍ علَينا وهُمْ كانوا أعقَّ وأظْلَمَا (٥)

ولمّا رأيْتُ الودّ ليسَ بنافِعي عَمَدْتُ إلى الأمر الذى كان أحْزَمَا

فلسْتُ بمُبْتاعِ الحَياةِ بذِلَّةٍ ولا مُرْتَقٍ مِنْ خَشيَةِ المَوتِ سُلَّمَا

الُحصين بن الحمام المرىّ يحارب أيضاً لأن داعي الشرف دعاه إلى ذلك ، وعنده الميتة الحسنة على ما يتعقبها من الأحدوثة الجميلة آثر من العيشة الذميمة على ما يخالطها من الذلّ . إنه يحارب بحزم وجلد ، وهو يصف حربه بإيجاز شديد ، وإذا الحرب عنده خيل مسوّمة كثيرة العدد ، عليها فتيان بدروع دقيقة الصنعة وسيوف بتارة ، وتفليق لهامات الأبطال ، وإذا شعره حكاية حال ،

---

(١) الخارجى من الخيل هو الذى برز وأبواه ليسا كذلك . المسوم : المعلم بعلامة يعرف بها يشير بهذا البيت إلى كثرة الخيل والرجال .

(٢) محرق : أحد ملوك لخم حرق قوماً فسمى محرقاً .

(٣) الصفائح : السيوف ، وقد نصب على أنها مفعول « كسا » فى البيت السابق . بصرى : موضع بالشام تباع فيه السيوف . القيون : الحدادون . المطرد : الدرع المتابعة النسج . يقول : كساهم محرق سيوف بصرى التى أجيد صنعها وكساهم أيضاً دروعاً متتابعة النسج خفيات الحلقات لدقة صنعها .

(٤) وإن كان يوماً : أى وإن كان ذلك اليوم يوماً . يقال : أراه الكواكب نهاراً ، لاحتجاب الشمس فيه من الغبار أو لشدة الأمر وعظم الخطب .

(٥) يقول : نشق رؤوس رجال أعزة علينا ولكن الذى حملنا على قتالهم إنما هو ظلمهم وعقوقهم.

وإبداء لآرائه فى الحياة والموت ! وإذا هو فى كل ذلك شاعر بدوىّ مستميت فى سبيل الشرف والإباء .

المهلهل :

هو عدى بن ربيعة التغلبى ، خال امرئ القيس الشاعر المشهور ، وهو بطل من أبطال حرب البسوس ، وقد أسر فى نهاية الأمر ومات فى أسره . وأكثر شعره فى رثاء أخيه كليب وفى توعد الأعداء وما إلى ذلك . وأدبه هو أدب العاطفة التى تغالى فى وصف الأخ ووصف الهول ، وتعتمد التكرار والتهديد الطفولى وطلب المستحيل فى غير منطق ولا تحليل ، وذلك كله تارة فى جو ملحمى من الشعر الحربى ، الذى تتقاذف ألفاظه ، ويتعالى دوى حوافر أفراسه ، وطوراً فى أجواء من الميوعة هى موسيقى خمر ونساء . وأدب المهلهل هو أدب حرب وحماسة ، وأدب عاطفة وتكرار ، وأدب سهل الأسلوب وسهل التعبير . والمهلهل هو بطل فى الحرب وفى اللهو ، وقد نسجت حواليه أسطورة الزير ، فلا عجب أن دس فى شعره أبيات كثيرة ليست له ، قد تكون سبباً من أسباب الضعف والهلهلة والإسفاف فى أدبه .

الحماسة فى المعلقات :

إن من يقرأ المعلقات يلمح أن فيها ناحية ملحمية كما فى سائر الشعر الجاهلى ، وإننا سنجتزئ بذكر ثلاث من تلك المعلقات ، وفيها شاهد كاف على ما نقول وما نحن فى صدده : معلقات عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة بن شداد .

عمرو بن كلثوم هو أبو الأسود بن مالك التغلبى ، وأمه ليلى بنت المهلهل . نشأ عزيز الجانب أنوفاً معجباً بنفسه أشد الإعجاب ، وساد قومه وهو ابن

خمس عشرة سنة ، وقاد الجيوش مظفراً . ولما قامت المشاحة بين بكر وتغلب واحتكموا إلى عمرو بن هند ، وقف عمرو بن كلثوم مدافعاً عن قومه ، وما إن فرغ من إنشاد قصيدته حتى ظهر له أن هوى الملك مع بكر ، فانصرف وفى نفسه ما فيها . ثم خطر فى نفس بن هند أن يكسر من أنفة تغلب بإذلال سيدها عمرو بن كلثوم ، فدعاه هو وأمه ليلى ، وأغرى هنداً أمه أن تستخدمها فى قضاء أمر . فصاحت ليلى : « واذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها عمرو بن كلثوم ، فثار به الغضب وقتل ابن هند فى مجلسه ، ثم رحل توًّا إلى بلاده بالجزيرة الفراتية ، وأضاف إلى معلقته قسما بين فيه سخطه على عمرو بن هند.

وإنا لنشعر ، ونحن نقرأ معلقة ابن كلثوم ، أننا أمام مشهد يشبه مشهد أخيل يخاطب هكطور فى لهجة الناقم ، فى لهجة الشجاع الباسل الذى يتدفق تدفق السيل الجارف ، فى لهجة من تملأ من المجد وقام فى قومه مقام السيد ، وحمل فى نفسه ماضياً زاخراً بالعزة ، حافلاً بالقوة ، وحاضراً تتعانق فيه السيوف والرماح وتجرى فيه الدماء سيولاً ، ومستقبلاً يقوم على جماجم الأعداء صروحاً تظلل الأبناء إلى أبد الدهر .

وإننا نلمس فى هذه المعلقة أن أدب ابن كلثوم هو أدب الثورة والجماح ، أدب الانفعال الشديد الذى لا يحد منه العقل ، فقصيدته اندفاع على غير هدى ، وعلى غير استقامة فى التفكير والتنسيق ، وأفكاره متدافعة ، متقاذفة ، مكرورة ، تسبح فى عالم من الخيال الجامح الذى يغلو ويغرق فى الغلو .

أما الحارث بن حلزة اليشكرى البكرى فهو الذى وقف فى وجه عمرو بن كلثوم يوم الاحتكام إلى عمرو بن هند ، ودافع عن قومه بقصيدته المعدودة من المعلقات ، والتى وصف فيها الحرب ومزج فى الوصف صهيل الخيل بصلصلة الصوارم ، بعجيج الأبطال ، بأصوات الماشية ، بثورة الطبيعة كلها . وشعر ابن حلزة خطابى ملحمى ، يرمى إلى الإقناع ، ويعتمد سرد القصص البطولى ، وذلك

فى جو من الموسيقى الشديدة الوقع ، التى تدوى فى هدوء وانطلاق ، وتماشى العقل والشعور والخيال ، فتزيدها قوة وعمق تأثير .

وعنترة بن شداد : هو عنترة بن شداد العبسى أحد فرسان العرب وأغربتها وشعرائها المشهورين .

ولما كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان كان عنترة قائد الكتائب وخائض الغمرات ، وكان البطل الذى تناولت الأسطورة أعماله فجعلت منه المثال الأعلى فى الفروسية والبطولة . وقد حفز عنترة على أعمال البطولة ، فوق ما حفزه ، رغبته فى استرضاء عبلة ، ومحو سواد الجلد ببيض الفعال . وشاخ عنترة بن شداد وهو أبداً رجل الخيل والسيوف والرماح ، وقد مات قتلا نحو سنة ٦١٥ للميلاد .

[وَرَد فى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ما يلى : « كان عنترة من أشدّ أهل زمانه وأجودِهم بما ملكت يدُه . وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتّى سابَّه رجُلٌ من بنى عَبْس ، فذكر سواده وسواد أمّهِ وإخوتهِ ، وعيّره بذلك وبأنّه لا يقول الشعر . فقال له عنترة : والله إنَّ الناسَ ليترافَدُونَ بالطُّعْمة فما حَضَرْتَ مرْفَدَ الناسِ أنْتَ ولا أبوكَ ولا جدُّكَ قطُّ ، وإنَّ الناس ليُدْعَوْنَ فى الغارَات فيُعرفونَ بتسويمهم ، فما رأيناك فى خَيْلٍ مُغيرةٍ فى أوائل الناس قطُّ ، وإنَّ اللَّبْسَ ليكونُ بيننا ، فما حضَرْتَ أنْتَ ولا أبوك ولا جَدُّك خُطَّة فَيْصل ، وإنّما أنْتَ فَقْعُ نَبتٍ بقرْقر وإنّى لأحتضر البأس ، وأوافى المَغْنَم ، وأعفُّ عن المسألة ، وأجود بما ملكتْ يدى ، وأفصِّلُ الْخُطَّةَ الصَّمْعاء ، وأما الشِّعْر فستَعْلَم . وأنشد معلّقته التى نورد طرفاً منها :]

هَلْ غادَر الشُّعراءُ من مُتردَّمِ ؟   أَمْ هَلْ عرفْت الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ ؟

يا دارَ عَبْلَةَ بالجِواءِ تكلَّمِي ... وعِمِي صَبَاحاً دارَ عَبْلَةَ واسْلَمِي

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُه ... أَقْوَى وأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الهَيْثَمِ

حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فأَصْبَحَتْ ... عَسِرًا عَلَيَّ طِلاَبُكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ

عُلِّقْتُها عَرَضاً وأَقْتُلُ قومَهَا ... زَعَماً لَعَمْرُ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمِ

وَلَقَدْ نَزَلْتِ - فَلاَ تَظُنِّي غَيْرَه ... مِنِّي - بِمَنْزِلَةِ المُحِبِّ المُكْرَمِ

كَيْفَ المَزَارُ وَقَدْ تربَّعَ أَهْلُهَا ... بِعُنَيْزَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بالغَيْلَمِ

إنْ كُنْتِ أَزْمَعْتِ الفِرَاقَ فإنَّما ... زُمَّتْ رِكابُكُمُ بِلَيْلٍ مُظْلِمِ

ما راعَنِي إلاَّ حُمُولَةُ أَهْلِهَا ... وَسْطَ الدِّيارِ تَسَفُّ حَبَّ الخِمْخِمِ

فيها اثنتان وأربعون حلوبة ... سود كخافية الغراب الأسحم

إذْ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاضِحٍ ... عَذْبٍ مُقَبَّلُهُ لَذِيذِ المَطْعَمِ

وَكَأَنَّ فَارَةَ تاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ ... سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الفَمِ

أَوْ رَوْضَةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نَبْتَهَا ... غَيْثٌ قَلِيلُ الدِّمْنِ لَيْسَ بِمَعْلَمِ

جَادَتْ عَلَيهِ كُلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ ... فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كالدِّرْهَمِ

سَحًّا وَتَسْكاباً فَكُلُّ عَشِيَّةٍ ... يَجْرِي عَلَيْهَا المَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ

وَخَلاَ الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ ... غَرِداً كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ

هَزِجاً يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ ... قَدْحَ المُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ

تُمْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ ... وأَبِيتُ فَوْقَ سَرَاةِ أَدْهَمَ مُلْجَمِ

وَحَشِيَّتِي سَرْجٌ عَلَى عَبْلِ الشَّوَى ... نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ نَبِيلِ المحْزَمِ

هَلْ تُبْلِغَنِّي دَارَهَا شَدَنِيَّةٌ ... لُعِنَتْ بِمَحْرُومِ الشَّرَابِ مُصَرَّمِ

خطّارةٌ ، غِبَّ السُّرَى ، زيّافةٌ … تَطِسُ الإكامَ بِذاتِ خُفٍّ مِيثَمِ

إنْ تُغْدِفِي دُونِي القِناعَ فإنّنِي … طَبٌّ بأَخْذِ الفارِسِ المُسْتَلْئِمِ

أَثْنِي عليّ بما عَلِمْتِ فإنّنِي … سَهْلٌ مُخالَقَتِي إذا لَمْ أُظْلَمِ

فإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظُلْمِيَ باسِلٌ … مُرٌّ مَذاقَتُهُ كَطَعْمِ العَلْقَمِ

ولَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ المُدامَةِ بَعْدَما … رَكَدَ الهَواجِرُ بالمَشُوفِ المُعْلَمِ

بزُجاجَةٍ صَفْراءَ ذاتِ أَسِرَّةٍ … قُرِنَتْ بأَزْهَرَ في الشِّمالِ مُفَدَّمِ

فإذا شَرِبْتُ فإنّنِي مُسْتَهْلِكٌ … مالِي ، وعِرْضِي وافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ

وإذا صَحَوْتُ فَما أُقَصِّرُ عَنْ نَدًى … وكما عَلِمْتِ شَمائِلِي وتَكَرُّمِي ...

هلاّ سأَلْتِ الخَيْلَ يا ابْنَةَ مالِكٍ … إنْ كُنْتِ جاهِلَةً بِما لَمْ تَعْلَمِي

إذْ لا أَزالُ على رِحالَةِ سابِحٍ … نَهْدٍ تَعاوَرُهُ الكُماةُ مُكَلَّمِ

طَوْرًا يُعرَّضُ لِلطِّعانِ وتارَةً … يأْوِي إلى حَصِدِ القِسِيِّ عَرَمْرَمِ

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقائِعَ أنّنِي … أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عِنْدَ المَغْنَمِ

فأَرَى مَغانِمَ لَوْ أَشاءُ حَوَيْتُها … فَيَصُدُّنِي عَنْها الحَيَا وتَكَرُّمِي

ومُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزالَهُ … لا مُمْعِنٍ هَرَبًا ولا مُسْتَسْلِمِ

جادَتْ يَدايَ لهُ بِعاجِلِ طَعْنَةٍ … بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ مُقَوَّمِ

فَشَكَكْتُ بالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيابَهُ … لَيْسَ الكَرِيمُ على القَنا بِمُحَرَّمِ

ولَقَدْ ذَكَرْتُكِ والرِّماحُ نَواهِلٌ … مِنِّي وبِيضُ الهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي

فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لأَنَّها … لَمَعَتْ كَبارِقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ

لَمّا رَأَيْتُ القَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ … يَتَذامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ

يَدْعون عَنْتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّها أَشْطَانُ بِئْرٍ فى لَبَانِ ٱلأَدْهَمِ
مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِغُرَّةِ وَجْهِهِ وَلَبَانِهِ حَتَّى تَسَرْبَلَ بِالدَّمِ
فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ ٱلْقَنَا بِلَبَانِهِ وَشَكَا إِلَىَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ
لوْ كانَ يَدْرِى ما ٱلْمُحَاوَرَةُ ٱشْتَكَى وَلَكانَ لوْ علِمَ ٱلْكلامَ مُكلِّمِى
وَلقَدْ شفَى نَفْسى وأَبرأَ سُقْمَهَا قِيلُ ٱلْفَوَارِس: وَيْكَ ، عَنْتَرَ أَقْدِمِ
ذُلُلٌ رِكابِى حَيْثُ شِئْتُ مُشَايِعِى قَلْبِى ، وَأَحْفِزُهُ بِأَمْرٍ مُبْرَمِ
وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ على ٱبْنَىْ ضَمْضَمِ
ٱلشَّاتِمَى عِرْضِى وَلَمْ أَشْتِمْهُمَا وَٱلنَّاذِرَيْنِ إِذَا لَمْ أَلْقَهُمَا دَمِى
إِنْ يَفْعَلاَ فَلَقَدْ تركتُ أَبَاهُما جَزَرَ ٱلسِّباع وكلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ

وإننا ، ونحن نقرأ شعر عنترة بن شداد ، نشعر أننا أمام امرأة هى أشبه شيء بهيلانة التى كانت سبب الحرب بين الإغريق وطروادة : وأننا أمام عبلة التى يثور لأجلها البطل العربى ، ويحارب فى سبيلها، ويسفك الدماء أنهاراً ، وأننا أمام بطل هو أشبه شيء بأخيل طيار الخطى، الذى يعتزل الحرب لخلاف نشب بينه وبين أغا ممنون ويترك قومه عرضة للتلف ؛ وأننا أمام عنترة يعتزل الحرب لخلاف نشب بينه وبين قبيلته ، لخلاف مرده إلى أن عنترة ابن أمة لا يحق له الانتساب إلى قبيلته ولا يحق له الاقتران بابنة عمه ، ولا يحق له أن يكون حرًّا . ولما اشتد الأمر على عبس وكاد يدركهم التلف صاحوا به: « ويك عنتر أقدم! » فيقدم عنترة حرًّا ، ويبدد جيوش الأعداء ، وينشر الذعر فى البلاد ، على جواد يكاد يتكلم، وبسيف يجز الرؤوس ، ورمح يخترق الصدور ، ويطير القلوب .

وترى فى عنترة جميع الصفات التى كان يتحلى بها فرسان القرون الوسطى من شجاعة وشرف وقتال فى سبيل هدف أعلى ، ومناصرة للضعيف ، وحب شديد عنيف لفتاة كريمة يعمل جهده فى إرضائها ، وهو شاعر فياض القريحة يلتهب حماسة ، فنظم الشعر يصف مواقعه ، وإذا نفسه يقترب من نفس الملاحم ، فهو يجعلنا فى جو ملحمى أبطاله سيف الشاعر ورمحه وساعده ، وخوارقه أعمال الشاعر التى يضخمها الخيال الخلاق ، ويغشى قصصها بالصور والألوان ، فتتوالى على السمع والبصر فى إيجاز بعيد عن التفصيل ، وفى موسيقى شديدة الوقع ، ولغة وثابة فيها عزة الشاعر وثورته ومزاجه العصبى .

الحماسة فى العهد العباسى

(١) دواعى الحماسة العباسية :

وقفت الفتوح فى العهد العباسى ، وأخلد الناس إلى الأمن والراحة فى أغلب الأحيان ، ولولا بعض الحروب والفتن لخمدت جذوة الشعر الحربى فى العالم العربى ، أما تلك الحروب والفتن فمرجعها إلى ما يلى .

قامت الدولة العباسية فى أول عهدها على القوة ، واستعانت بالفرس خاصة والشعوبية عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشميين ، فشالت كفة العرب والعروبة ورجحت كفة الأعاجم ، واقتصر شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التى احتوتها الإمبراطورية ، وتغلغل الفرس فى صلب الدولة . ولما نقلت العاصمة إلى بغداد تحول وجه الدولة عن البحر المتوسط ، وتوجه شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق ، وهكذا حاكى العباسيون الأكاسرة فى تنظيم دولتهم ، ومالوا إلى الترف والرخاء ، واعتمدوا على من يقوم مقامهم فى مباشرة الأعمال ، ففرعوا المناصب وأكثروا من الدواوين ، وأقاموا على الأقاليم البعيدة عمالاً يأمرون وينهون ، من مثل جعفر ابن يحيى البرمكى ، الذى ولاه الرشيد المغرب كله من أنبار إلى إفريقية ، وأخيه الفضل بن يحيى الذى تولى الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك .

ولم يقف العباسيون عند هذا الحد بل تجاوزوه شيئاً فشيئاً إلى إدخال الفرس والأتراك فى جندهم ، فكان فى الجيش فرقة خراسانية ، وكان فى الجيش أيضاً عدد كبير من الفراغنة أى الأتراك ، جمعهم المعتصم من أسواق بغداد لخوفه على

نفسه من جنده ، فكانوا على الخلافة والدولة وبالاً ، وقد عملوا على دك أركانها وعلى نشر الفوضى فى البلاد .

ولم تخل البلاد ، فى عهد بنى العباس ، من حروب وفتن . أما فى الداخل فقد نهضوا إلى قمع ثورات الراوندية مؤلهى أبى مسلم الخراسانى ، والزنادقة فى العراق وفارس ، والعلويين مع ابن طباطبا ، والخرمية[1] مع بابك ، وغيرهم من الذين قاموا فى وجه الأمن والسلام . وأما فى الخارج فقد أكثر الخلفاء من الصوائف والشواتى ، وهى الحملات والغزوات فى الصيف والشتاء ؛ وقد اشتهر فى ذلك أبو جعفر والمهدى والمعتصم ، فحاولوا غزو الممالك الملاصقة ولا سيما بلاد الروم .

وهكذا جرت فى العهد العباسى مواقع تشبه أيام الجاهلية من حيث إنها أصبحت مستوحى الشعراء وموضوع أناشيدهم الحربية . ومن ذلك وقعة « أرشق » للأفشين على بابك الخرمى ، وقد تغنى بها أبو تمام وأشاد فيها بذكر الأفشين ؛ وكذلك وقعة عمورية للمعتصم على ملك الروم تيوفيل ؛ وثورة الزنوج ودخولهم البصرة ، وقد سجل ابن الرومى تاريخها فى شعره ، إلى غير ذلك من المواقع البرية والبحرية التى سنأتى على ذكرها فى دراسة كل شاعر .

(ب) موضوعات الحماسة العباسية وميزاتها :

دار الشعر الحماسى فى العهد العباسى حول وصف تعبئة الجيوش ، وزحفها ، ووصف الأسلحة والخيول والأساطيل والنصر وفرار العدو ، وما إلى ذلك . وقد تتبع الشعراء فى هذا العهد أساليب الأقدمين ومعانيهم ، وزادوا على ذلك أن مزجوا الحكمة بالتصوير الفنى وألفوا بين الوصف وحسن التعليل ، واهتموا للصياغة اهتماماً خاصاً ، كما اهتموا للتزويق والتهويل فى الوصف والتصوير .

---

(١) ظهر بابك الخرمى فى عهد المأمون نحو سنة ٨١٧ م .

(ح) نماذج من الحماسة العباسية :

اشتهر كثيرون فى الشعر الحماسى لهذا العهد ، وإننا سنقتصر على ذكر أبى تمام وأبى الطيب المتنبى .

أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائى ، وقد اهتم للحروب والفتن التى نشبت فى أيامه فى شرق العراق وفى غربه ، ومن أهمها الحرب التى دارت بين بابك الخرمى والمعتصم . وقد خلع بابك الطاعة واعتصم فى أرض البذ وإقليم أذربيجان ، فسير إليه المعتصم قائده الأفشين عملاً بوصاة أخيه المأمون قبل موته ، فسار إليه بجيش حسن الأهبة . ولما التقى الجيشان جرت بينهما مناوشات مختلفة لم تمكن أحدهما من الآخر ، إلى أن كان يوم « أرشق » فالتحم الجيشان التحاماً شديداً ، ولاذ بابك بالفرار فتبعته جماعة الأفشين وأدركته ليلاً ، فهجم الأبطال على الأبطال ، واصطدم الرجال بالرجال ، إلى أن افتر الصباح ، والمعركة لا تزال حامية الوطيس ، وامتد النهار إلى أن كان الزوال ، فسقط من جماعة بابك عدد كبير وتشرد الباقون ، وقبض على بابك وقيد إلى المعتصم مغلولاً ، فقتل شر قتلة . واستقبل الأفشين أحسن استقبال ، وأدخل إلى القصر فى اعتزاز ، وبذلت له الأموال والجواهر ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه .

وقد نظم أبو تمام فى فتنة بابك الخرمى شعراً كثيراً ، من أروعه قصيدة لامية قالها فى انتصار الأفشين ، وصور حال الناس القلقة من جراء بطش بابك وسطوته فى البلاد ، ثم راح يصف يوم أرشق وما جرّ من الوبال على ذلك الداهية الذى مات المأمون وهو عاجز عنه ، والذى دوّخ البلاد بجيش جمعه من الترك والفرس وكل من نقم على بنى العباس ؛ وراح أبو تمام يتتبع الموقعة ، ويحدد زمانها ومكانها بدقة ، ويذكر حركات الجيشين وقد استبسلا استبسالاً عظيما ، ويتدفق مع المسلمين تدفقاً عاطفياً جباراً ، ويرسل مع كل لفظة حمماً من بركان

نفسه ، ويحمل كل عبارة ما لا تطيق من المعانى الحربية الشديدة ، ومن الأخيلة الضخمة ، ومن الموسيقى التهويلية ، ومن المقارنات اللفظية والمعنوية المؤثرة ، ويقول :

يا يَوْمَ أَرشقَ كنت رَشْقَ مَنِيَّةٍ … للخرميَّةِ ، صائبَ الآجالِ

أَسْرَى بنو الإِسْلاَمِ فِيهِ وأَدْلجوا … بقلوبٍ أُسدٍ فى صدور رجالِ

لمَّا رآهم بابَكٌ دون المُنَى … هجرَ الغوايةَ بعد طولِ صِيَالِ

يومٌ أضاء به الزَّمَانُ وفتَّحت … فيه الأَسِنَّةُ زهرةَ الآمالِ

وسَرَوْا بقارعة البياتِ فزُحزِحوا … بقراعِ لا صَلِفٍ ولا مُخْتَالِ

نزَلَتْ مَلاَئِكَةُ السَّماءِ عَلَيْهم … لمَّا تداعى المسلمونَ : نَزَالِ

لَمْ يُكْسَ شَخْصٌ فَيْئَهُ حتَّى رَمَى … وَقْتُ الزَّوَالِ نَعِيمَهُمْ بزوالِ

فَالْبَذُّ أغْبَرُ دَارِسُ الأَطلالِ … بَيدِ الرَّدى أكلٌ من الآكالِ

ألْوَتْ بهِ ، يومَ الخميس، كتائِبٌ … أَرْسَلْنَهُ مثلاً منَ الأَمْثَالِ

كَمْ صارمٍ عَضْبٍ أنافَ على فَتًى … منهم لأَعباءِ الوَغَى حمَّالِ

سَبَقَ المشِيبُ إليهِ حتَّى ابْتَزَّهُ … وطَنَ النُّهى من مَفْرِقٍ وقَذَالِ

قَاسَى حياةَ الكَلْبِ إلاَّ أنَّهُ … قَدْ مَاتَ صَبْرًا مِيتَةَ الرِّئْبَالِ

وهكذا يسير أبو تمام فى ملحمته الحربية من مشهد إلى مشهد ، متمثلاً ، هائج العاطفة ، هائج الخيال ؛ ينتصب أمام ذلك اليوم بكل شطاطه ، فيناجيه ، ويشخصه ، ويكاد ينتشى لذكراه ، ويحار كيف يصوره ، فينتزع الصور من الألفاظ انتزاعاً ، ويقيم التنازع بين الألفاظ والوجوه التعبيرية والبيانية ، وإذا أنت أمام قصيدة قد تدرعت ألفاظها ، وتتابعت أبياتها ، جيوشاً جيوشاً ، تقودها العاطفة الصاخبة على أجنحة خيال أشد من الخيول

انطلاقاً ، وإذا أنت أمام حرب مشخصة أحسن تشخيص .

ومن الأحداث الكبرى التي شغلت أبا تمام وفجرت قريحته الشعرية فتح عمورية ، وذلك أن الروم اغتنموا فرصة انشغال العرب بحروب بابك ، فجهز تيوفيل إمبراطور الروم سنة ٨٣٧ م جيشاً عظيما من مائة ألف مقاتل ، وزحف به قاصداً بلاد العرب ، ففتح زبطرة وأعمل السيف فى رقاب أهلها ، كما أعمل النار فى ديارها ، واستاق إلى القسطنطينية مالاً وغنائم ، ولما بلغ الخبر أذنى الخليفة ارتاع له ، وهبّ من ساعته فعبأ العسكر ، ونادى بقواده الكبار من مثل الأفشين ، وبغا ، وأشناس ، وجعفر بن دينار ، وقسم جيشه كراديس ، وجهزه بالعدة والسلاح ، وكان على أهبة السير إلى عمورية حين نهض المنجمون ونهوه عن الحرب احتساباً منهم أنه طالع نحس ، وأن عمورية لن تفتح إلا فى وقت إدراك التين والعنب ، فلم يعبأ المعتصم بذلك بل زحف زحفاً شديداً ، حتى بلغ عمورية وحاصرها حصاراً شديداً مدة خمسة عشر يوماً ، ورمى أسوارها وأبراجها بالمجانيق وسائر الآلات الحربية المعروفة لذلك العهد ، فخرت الأسوار وانهال الجيش العربى على المدينة ، وقتل من الروم خلقاً كثيراً ، واستاق عدداً من القواد كما رجع بمال وغنائم . وقد اهتزت البلاد لتلك الموقعة اهتزازاً شديداً واهتزت قريحة أبى تمام اهتزازاً عنيفاً ، وانتصب فى سامرّا يمدح المعتصم ويصف الموقعة ويقول :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... فِى حَدِّهِ الحَدُّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ

بِيضُ الصَّفَائِحِ لاسُودُ الصَّحَائِفِ فى ... مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

وَالعِلْمُ فى شُهُبِ الأَرْمَاحِ لَامِعَةً ... بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لا فى السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

أَيْنَ الرِّوَايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا ... صاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ

تَخَرُّصًا وَأَحَادِيثاً مُلَفَّقَةً ... لَيْسَتْ بِنَبْعٍ ، إِذَا عُدَّتْ ، وَلَا غَرَبِ

يا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرَفَتْ ... عنكَ المُنَى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحَلَبِ

لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا ... لِلنَّارِ يَوْماً ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْخَشَبِ

غَادَرْتَ فِيهَا بَهِيمَ اللَّيْلِ وَهْوَ ضُحىً ... يَشُلُّه وَسْطَهَا صُبحٌ مِنَ اللَّهَبِ

حتَّى كأَنَّ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ ... عَنْ لَوْنِها ، أَوْ كأَنَّ الشَّمسَ لَمْ تَغِبِ

ضَوْءٌ مِنَ النَّارِ ، والظَّلْمَاءُ عاكِفَةٌ ... وَظُلْمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضُحىً شَحِبِ

فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا ، وَقَدْ أَفَلَتْ ... وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ فِي ذَا ، وَلَمْ تَجِبِ

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ باللهِ مُنْتَقِمٍ ... للهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللهِ مُرْتَهِبِ

لَمْ يَغْزُ قَوْماً ، وَلَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ ، ... إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعُبِ

لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلاً يَوْمَ الوَغَى لَغَدَا ... مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

هذه أبيات من القصيدة الطويلة التي نظمها أبو تمام في فتح عمورية ، وقد حلق فيها تحليق النسور ، وحاول أن يربط الأحداث التاريخية بأهداب عاطفته الجياشة ، وأن ينطلق مدوياً ، مصوراً ، راسماً بريشته الآفاق والأجواء ، وإذا أنت أمام مشهد هول تقشعر له الأبدان ، وإذا أنت في ليل من عجاج وظلام ، وفي نهار من لهب ونيران . وإذا النيران تمتد وتلتهم وتتصاعد في الجو لهباً ودخاناً ، وإذا أنت أمام شاعر يمزج الحقيقة بالعاطفة الهدارة ، والخيال الحربي المندفع ، فيكثر من الطباق والجناس ، ويكثر من استعمال الألفاظ الشديدة الوقع ، وإذا الأبيات كتائب ، والعبارات صلصلة سيوف ورماح .

وهكذا يتجلى أبو تمام رجل حماسة ورجل اندفاع ، ينظم وهو شديد الانفعال ، شديد التطلب للتفكير المركب ، والصور المتناقضة المركبة في تناقضها ، والعبارات المحبوكة حبكاً معقداً ، والحافلة بالموسيقى الهدارة وبكل غريب صادع .

وإنه ليضيق بنا المقام لو أردنا تتبع أبي تمام في شعره الحماسي الكثير ، وإننا نكتفي بما أوردنا لما فيه من الدلالة على ما لم نورد .

أما أبو الطيب المتنبي ، وقد أتينا على ذكره في باب الفخر الذاتي ، فهو شاعر الحماسة الحمدانية ، وقد فسحت له البيئة مجالاً واسعاً لذلك ، لأن حروب الحمدانيين مع الروم دامت نحو ستين عاماً ، وكان لها أصداء واسعة في طول البلاد وعرضها . وقد استخلص الدكتور زكي المحاسني من كتابات المؤرخين أوصاف جيشي الروم والعرب فقال : « إن جند سيف الدولة كانوا مغاوير محبين للحرب . . . ولم يكن لباس الجندي العربي مختلفاً عن لباس الجندي اليوناني ، الذي سلاحه قوس ونبل ودرع ومزراق وسيف وفأس للمعركة ، وإلى ذلك مغفر يستر الرأس ، ودرع من المعدن تغطي الجذع ، وجانبيات تستر رجليه والساعدين ، ومقاود من الفولاذ للخيل . وكانت أغماد السيوف العربية مرصعة بالفضة ، وسروج الخيول العربية مثل سروج خيول الروم . وكان العرب زمن سيف الدولة يلبسون ضروباً من الدروع اسمها الجوشن تغطي الفرس . . . ولم يكن شيء يختلف بين الروم والعرب في نظام الحرب سوى الهجوم ، فإن الروم تعودوا مع البلغار والروس الهجوم المنظم بخلاف العرب . أما باقي فنون الحرب فكانت متشابهة كل التشابه عند الفريقين ... ولم يكن العرب مثل جنود البيزنطيين ينقلون أداة حروبهم على العجل والدواب وإنما كانت الإبل لحمل أثقالهم . وما كانوا ورحى المعركة تدور ، ليستعينوا بالطبل الكبير أو القرون النافخة ، وإنما كانوا يقرعون على طبول صغيرة قرعاً عاجلاً متتابعاً . وهم إذا ساروا قلقلوا أقتابهم وعدتهم فزحف جيشهم مزيناً بالأعلام الملونة على رؤوس الرماح قصاصات مضفورة تلوح فوق رماحه المنصوبة التي لا ينتهي الطرف إلى مداها . وكانوا جميعاً مزينين بهذه الأعلام الملونة ، وهم إذا ساروا وثار الغبار وراءهم ، ترنموا في مسيرهم بأغان مقرونة بصوت الطبل الغامض المبهم وقرع الصنوج ، وكان الفرسان المسلحون ،

لكى يسرعوا فى السير ، يزحف مع كل فارس منهم جندى راجل وراءه » .

أما أهم المعارك التى جرت بين سيف الدولة والروم فمعركة خرشنة ، ومعركة الحدث الحمراء ، ومعركة الدرب وقد سجلها المتنبي فى شعره أروع تسجيل . أما معركة خرشنة فقد جرت سنة ٩٥٠ م وهى مزدوجة ، بدأت بفوز العرب على الروم ثم بفوز الروم على العرب ، وقد اتخذ الطرفان الحيلة الحربية طريقاً إلى النصر ؛ أما العرب فقد ساروا بجيش جرار ، وكمنوا فى بطن اللقان بالقرب من خرشنة ، وتقدم سيف الدولة بسرية واحدة يريد الدمستق وجيشه ، فحسب الدمستق أن جيش العرب قليل العَدد والعُدد فهاجمه بعسكره مهاجمة عنيفة ، ولم يحسب للطوارئ حساباً ؛ وفيما هو كذلك ثار عسكر العرب الكامن فى كل مكان وانتفضت الأرض عن رجال وأسلحة ملأت الآفاق ، وإذا الضربة هائلة ، وإذا الروم فى انحطام شديد ، وإذا العرب على طريق العودة فى نشوة أنستهم أن الروم جمعوا صفوفهم ، وكمنوا لهم فى طريق ضيقة وانهالوا عليهم ضرباً وتقتيلا ، ففروا إلى بلادهم هاربين . ولما وصلوا إليها وقف المتنبي مبوقاً ببوق الظفر ، مشيداً ببطولة رجال أمير حلب ، وراح يصف تلك المعركة ، ويتتبع حركات الزحف العربى ، ويصف ضعف نظر الدمستق فى الأمور ، وانكسار الروم ، وبسالة الجيش العربى ، ويمعن فى وصف الخيول ، ويخرج من الهزيمة الأخيرة بنصر معنوى للأمير العربى ، ويقول :

غَيْرِى بأَكثرِ هٰذا النَّاسِ يَنْخَدِعُ ... إنْ قاتَلُوا جَبُنُوا أَوحدَّثُوا شَجُعُوا

والمشرفيَّـــةُ لا زالَتْ مُشَرَّفَةً ... دَوَاءُ كُلِّ كريمٍ أَوْ هِيَ ٱلوَجَعُ

وفارسُ الْخَيْلِ مَنْ خَفَّتْ فوقَّرها ... فِى الدَّرْبِ والدَّمُ فى أَعْطافه دُفَعُ

بالْجَيْشِ تَمْتَنعُ السَّاداتُ كُلُّهمُ ... والجيشُ بابنِ أَبى الهَيْجَاءِ يَمْتَنعُ

قَادَ المقَانِبَ أَقْصَى شُرْبِها نَهَلٌ ... عَلَى الشَّكِيمِ وأَدْنَى سَيْرِها سَرَعُ

وأما معركة الحدث الحمراء ، فقد جرت بعد أن هدم الروم ذلك الثغر وقوّضوا أركانه ، وبعد أن باشر سيف الدولة إعادة البناء . فقد هاجمه الروم ، وهو فى حومة العمل ، وعلى رأسهم برداس فوكاس . ونشبت الحرب هائلة بين الفريقين ، ودامت من طلوع الشمس إلى غروبها ، وأسفرت أخيراً عن فوز الجيش العربى . ولم يترك سيف الدولة مدينة الحدث حتى أتم بناء سورها سنة ٩٥٤ م . فتناول المتنبي ذلك الحادث العظيم ونظم فيه ميميته الشهيرة :

على قَدْرِ أهل العزم تأتِي العزائمُ وتأتِي على قَدْرِ الكِرامِ المكارمُ

وقد افتتح القصيدة بإظهار عظمة سيف الدولة وما فى قلبه من شجاعة وهمة ، ثم انتقل إلى الحدث وإذا هى حمراء من دم الأعادى ، وإذا سيف الدولة يبنيها فى حومة الوغى ، والروم يهاجمون بجيش جرار ، تجمع فيه كل لسن وأمة ، بجيش يغطيه الحديد ، وتتصاعد زمازمه إلى أعالى الفضاء :

أتَوْكَ يجرّونَ الحديدَ كأنّما سَرَوْا بجيادٍ ما لَهُنَّ قوائِمُ
إذا بَرَقُوا لم تُعْرَفِ البِيضُ منهُمُ ثِيابُهُمُ من مِثْلِها والعمائِمُ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زَحْفُهُ وفى أُذنِ الجوزاء منْهُ زمازمُ
تَجَمَّعَ فيهِ كُلُّ لِسْنٍ وأمّةٍ فما يُفهِمُ الحُدّاثَ إلاّ التراجِمُ

والتحم القتال شديداً ، ودارت الدوائر على جيش الروم ، فوقف سيف الدولة باسماً ، وقد ضم جناحى العدو على القلب ضمة عنيفة ، وراح يطلق الضربات إثر الضربات ، واستغنى عن الرماح بالسيوف :

ومَنْ طلَبَ الفتحَ الجليلَ فإنّما مفاتيحُه البيضُ الخِفَافُ الصّوارِمُ

وهنا وقف المتنبي يصف فى هياج ظاهر ، وفى لهجة مطوية على الإعجاب

بالعظمة والبطولة ، وإذا ألفاظه متجالدة ، وحروفه مدوية ، ومعانيه متتابعة تتابع السيل الجارف ، فى غلو خيالى لا يحده حد ، حتى قال واصفاً الخيل :

إذا زَلِقَتْ مَشَّيْتَهَا بِبُطُونِها كَمَا تَتَمشَّى فى ٱلصَّعِيدِ الأَراقِمُ

وهكذا انتهت المعركة بقصيدة ليست دون المعركة هولاً وخلوداً .

وأما معركة الدرب . فمرجع أسبابها إلى أن البطريق أقسم عند ملكه أنه يعارض سيف الدولة فى الدرب ، وسأله أن ينجده ببطارقته وعدده وعدده ، ففعل ، فخاب ظنه . واندحر واندحرت معه جيوشه ، وكانت هذه المعركة آخر المعارك الظافرة لسيف الدولة على الروم ، فنظم المتنبي فيها قصيدة كانت آخر ما أنشده بحلب . ومطلعها :

عُقْبى اليمينِ عَلَى عُقْبَى الوغَى نَدَمُ ماذا يَزِيدُكَ فى إِقْدَامِكَ القَسَمُ

وقد تناول المتنبي قسم البطريق وراح يبين له كيف حلف على الظفر بسيف الدولة ، فاضطره إلى نقض يمينه فتى أراه من شدة الضرب ما أذهله عن قسمه وأنساه كلامه ووعده ، فتى تكل السيوف وهو لا يكل :

كُلُّ السُّيوفِ إذَا طَالَ الضِّرَابُ بها يَمَسُّها ــ غيرَ سيفِ الدَّوْلَةِ ــ السَّأَمُ

فتى ظن الروم أنه كالمصباح فى حلب إذا فارقها إليهم أظلمت وانتقض أهلها عليه وشقوا عصا الطاعة ، ولم يعلموا أنه الشمس التى تعم كل مكان بنورها ، وقد مشى إليهم بجيش بعيد الأطراف ، وخيل حميت حدائد لجمها من شدة الحر ، حتى كوتها الحكم كالمياسم ؛ ولما وصل إلى سمنين وردت خيوله بحيرتها فسمع للجمها نشيش عندما أصابها الماء وأطفأ حرارتها ! ثم انتقل إلى قرى هنزيط فجالت الخيل فيها للغارة والقتل ، وجالت السيوف لتقطيع الرؤوس ، فهرب

العدوّ واجتاز نهر أرسناس عله يجد ملجأ ، فلم يجد ، لأن خيول الجيش العربي أصبحت سفناً تمخر فى عباب النهر ، مندفعة أشد اندفاع .

وها هوذا المتنبي فى حومة القتال يطلق صوته ويقول مخاطباً أمير حلب :

صَدَمْتَهُمْ بخميسٍ أَنْتَ غُرَّتُه ... وسمهريّتُه فى وجْهِه غَمَمُ
فكانَ أَثْبَتَ ما فيهمْ جُسُومُهُمُ ... يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ والأَرواحُ تَنْهَزِمُ
والأَعوجيَّةُ ملءُ الطُّرْقِ خَلْفَهُمُ ... والمشرفيَّةُ ملءُ اليَوْمِ فَوْقَهُم
إذا توافَقَتِ الضرْباتُ صاعِدَةً ... توَافقَتْ قُلَلٌ فى الجوِّ تَصْطَدِمُ

وهكذا ينطلق المتنبي فى جيشان عاطفة وثورة خيال ، وهكذا يختم ملحمته الحمدانية بقصيدة هى من أروع قصائده ، وهكذا « خلد ذكر الحروب ، ووصف تلاوين الفروسية وتهاويلها ، فى دنيا الحمدانيين مع الروم ، وكتب بيده أكبر ملحمة للعرب والإسلام بأفخم أسلوب وأعذب بيان » .

شعر الحماسة بعد أبي الطيب المتنبي

واصل الشعر الحماسي سيره بعد أبي الطيب ، فكان عند أبي فراس الحمداني ثورة نفسية ممزوجة بذل الأسر ، وكان عند صفي الدين الحلي انتفاضة شديدة ، ولا سيا في قصيدته النونية المشهورة التي أصبحت نشيد القومية العربية من بعده ، وكان عند ابن هانئ الأندلسي وعند الشيخ ناصيف اليازجي تقليداً لشعر المتنبي ، وكان عند محمود سامي البارودي انطلاقات عسكرية ، وكان عند أحمد شوقي وخليل مطران نماذج تاريخية اجتماعية ، وكان في كل دولة عربية أناشيد قومية وتنفسات تحررية . وإنه لا يسعنا التطويل في مثل هذا الكتيب ، ولنا في ما بسطناه نماذج كافية على ما فطرت عليه الروح العربية وعلى ما تصبو إليه ، ثم على ما قامت به من جليل الأعمال في ميادين البطولة ومجالات المجد والخلود . وعلى ضيق المجال ليس لنا بد من كلمة نقولها في شاعر معاصر هو في نظرنا أبو الملحمة العربية الحديثة ، وهو في نظرنا القمة التي وصل إليها الشعر الملحمي الواعي ، والشعر الملحمي الموسوعي ، والشعر الملحمي الذي يحمل ثقافة عصور ، وفلسفة دهور ، والشعر الملحمي الذي يعالج قضايا العرب الاجتماعية في حر نار وفصاحة نور ، والشعر الملحمي الذي يوجه ويقود في بلاغة عربية أصيلة ، وفي بيان عربي رائع ، وفي مراعاة شديدة لنظام القصيدة العربية الكلاسيكية ، وفي تدفق ينبوعي يضطرب في لون محلي ، وفي تنوع غني ، وفي جو من البطولة المعنوية والبطولة المادية . أما ذلك الشاعر فهو « بولس سلامة » ، وأما ملحمته الكبرى فهي « ملحمة عيد الرياض » التي ظهرت في هذه الأيام الأخيرة ، ونحن آخذون في طبع هذا الكتيب ، والتي نظمها صاحبها في مدة ثمانية أشهر ،

واستغرق طبعها نحو عشرة أشهر والتى وقعت فى نحو ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وفى نحو ثمانية آلاف بيت من الشعر ، كلها على البحر الخفيف .

كان الشاعر بولس سلامة قد أتحف البلاد العربية بملحمة « عيد الغدير » وها هوذا يتحفها اليوم بملحمة « عيد الرياض » ، وقد تغنى فى الأولى بالإمام علىّ ، وتغنى فى الثانية بمآثر ابن سعود لما لقى فيه من بطولة تلتحق بعالم الخوارق ، وسخاء حاتمى ، وذكاء فطرى لماح ، وعدل وحلم ووفاء ، واتضاع وخفض جناح ، ورقة وتقوى .

قال بولس سلامة فى مقدمته : « ولعمرى إن هذه الملحمة لترتفع عن الحادثة اليومية وجرى المعتاد ، ولا يقع مثلها على رصفات الشوارع أو فوق أدراج الفنادق كل يوم ، بل لم يقع مثلها فى أيام العرب . فأين منها حرب البسوس ، أو حرب داحس والغبراء ؟ فإن عنترة ، على شجاعته ، فى زمن يقى فرسانه دروع وأتراس ، لا يوازى ابن سعود فاتحاً صدره للرصاص والقنابل ، بل أين منها حرب طروادة نفسها ، لولا الخيال الهوميرى الذى لم يقتصر على إنزال آلهة اليونان إلى المعمعان ، بل غمر بالألوهة أبطاله . فإذا كان لأمة الإغريق أن تباهينا بعبقرية شاعرها وإبداعه فى الخلق والاختلاق ، فإنا نباهيها ببطولة عبد العزيز التى لا يضيرها صدق الواقع » .

ومن ثم فقد اعتمد الشاعر الأصل التاريخى ، وراح يلقى عليه من شخصيته القوية ، وصادق انفعالاته ، وروعة خياله ، ما رفعه إلى مستوى عال من العوالم الملحمية . وراح الشاعر يسرد الأحداث التاريخية المتعلقة بابن سعود ، وراح يمزج السرد بانفلاتات شعرية ، واستطرادات وجدانية ، وما إلى ذلك مما يريح القارئ والسامع ، وراح ينظم القصائد الطويلة فى جزالة وسهولة عجيبتين ، وفى تدفق شعرى رائع ، وهو كلما أطال أجاد ، وكلما تدفق ازداد انفجاراً ، وكلما انفجر سبح شعره فى عالم من الروعة الأخاذة ، التى تجمع البداوة إلى الحضارة والفطرة ،

إلى الفلسفة والحكمة وعلوم الاجتماع . وهكذا كانت ملحمة عيد الرياض موسوعة تاريخية فلسفية ، وهكذا كانت مزيجاً من إيمان وحماسة ؛ وهكذا كانت صلصلة سيوف ، ورفرفة أجنحة ، وخفقة قلب حي ، وجمالاً شعرياً على كل حال . وإليك نموذجاً من نشيدها الأول ، وعنوانه « أحلام الجزيرة » :

بَعَثَ الحربَ «دَاحِسٌ» فاستطارَتْ ... وأَمَدَّتْ بالْعِثْيَرِ «الْغَبْرَاءُ»
أمطرتْ نارَهَا نجيعاً ودَمْعاً ... ومنَ الحافِرِيْنِ ذَرَّ البَلاءُ
وبنو «العبس» جَمْرَةُ العُرْبِ لولا ... عَنْتَرٌ لاعترى سناها انطفاءُ
إذْ يُنَادونَ ويْلَكَ عَنْتَر أَقدِمْ ... وعزيز على التجيد النِّداءُ
المروءاتُ فى دماه استجابَتْ ... واستشاطَ الفؤادُ والأَحْنَاءُ
وَتنشَّرتْ أَوْدَاجُهُ والْجُفُونُ الـ ... حُمْرُ أَجَّتْ قَذُونَهَا الرَّمْضَاءُ
فرمَى فى العجاجِ مُهْرا قَتاماً ... كانَ لَيْلاً فحمرَّتْهُ الدِّمَاءُ
قُنْفذًا عادَ مِنْ وُقوعِ السِّهام الز ... رق غصَّتْ بسَيْلها الأَعْضَاءُ
كادَ يبكى من الجراحات لولا ... أنَّ فى سَرْجِهِ استقَرَّ الرَّجاءُ
فتعجَّب لأَدْهَمينِ أطلَّت ... منهما فى المعامعِ الأَضْوَاءُ
قد يذرُّ الضياءُ من جنحِ ليل ... ومن الْخَيْرِ قد يطلُّ الشَّقاءُ
لم يروِّع «أبا الفوارِس» جَيْشٌ ... كُلَّما ازْدَادَ زَادَ منهُ المضاءُ
خَلْفَهُ طَرْفُ عبلةٍ وَلَمَاهَا ... فالمنايا لطــرْفه إغْرَاءُ !

فهرس

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٢ / ٥٧٠٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3758-2

١ / ٩٢ / ٥٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

مجموعة
فنون الأدب العربى

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربى ألواناً من الفنون الأدبية التى عالجها الأدب العربى فى مختلف أقطاره وعصوره . فهى تقف أمام كل فن أدبى فتعالجه فى جزء أو أكثر من هذه السلسلة التى سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التى تكون فى مجموعها ذلك الهيكل الأدبى الضخم الذى شيدته العربية فى تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربى لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا فى كتب التاريخ الأدبى . . . ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكبر هذه المجموعة على قدر ما فى الأدب العربى من فنون .

صدر منها :

- فى الفن الغنائى : الغزل (جزءان) ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والحماسة ، الهجاء ، الموشحات والأزجال .
- فى الفن القصصى : المقامة ، التراجم والسير ، الرحلات ، الترجمة الشخصية .
- فى الفن التمثيلى : المسرح .
- فى الفن التعليمى : النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال .

تحت الطبع :

- فى الفن الغنائى : الزهد والتصوف .
- فى الفن القصصى : الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .
- فى الفن التمثيلى : الفاجعة والمأساة ، الملهاة .
- فى الفن التعليمى : منظومات الشعر .